

حضارة العبيد
النظام البديل للزواج

عبد الرؤوف بن عون

حضارة العبيد

النظام البديل للزواج

تأليف

ابن عون

فهرس

مُقَدِّمَة

لاحظت عند دخولي للجامعة - جامعة الأزهر بالقاهرة - وانتقالي إلى العاصمة لاحظت عدم التقيد بالزي الإسـلامي للمرأة عند الكثير من النساء بل هناك جرأة وتصريح بعـدم القدرة على الالتزام أو العودة لهذا الزي الإسلامي الجميـل الذي يحفظ للمرأة حياءها وعفتها ودينها.

وبعض هؤلاء النسوة للأسف ينحدرن من أسـر عريقـة وكبيرة، وبعضهن من أبناء مشايخ وأساتذة بالأزهر، ومنـذ طفولتي وأنا مغرم بالقراءة وصادفني أيضا أثنـاء قراءاتـي العديد من الاعتراضات لكُتاب مشهورين مرموقين في مصر يعترضون على الشريعة الإسـلامية ويصـفونها بالقسـوة؛ لما فيها من رجم للزاني، وقطع ليد السارق... إلخ.

ويرون أن شريعة الإسلام لا تصلح لزماننا وإنما كانـت صالحة فقط قبل ١٤٠٠ سنة، أما الآن فهي غيـر صـالحة بل هي عودة مستحيلة للوراء.

وما سبب ذلك إلا الجهل بالدين، وإغلاق بـاب الاجتهـاد حتى أصبح الفقهاء يحفظون لا يفقهون ويفتون بآراء قديمـة

ولا يتدبرون، بل إن الساسة منذ القديم قد تدخلوا عن جهـل منهم وحمية وحماسة فألغوا أنظمـة هـي مباحـة شـرعا؛ فأصبحت محرمة قانونًا، وسهلوا أشياء هي محرمة شـرعا؛ فأصبحت مباحة قانونًا وهنا نتج ما نحن فيه.

ولكوني درست بالأزهر منذ نعومة أظفاري حتى تخرَّجت في كلية الهندسة جامعة الأزهر، وقد منَّ ا علىَّ بعلم ورأفة وإحساس بالغير أيا كان فكره أو مذهبه؛ لذا فكرت فيما كتب هؤلاء، وراجعت ما درست بالأزهر، فوجـدت أن شـريعة العبيد هي على النصف من شريعة الأحرار أي إنها يمكـن أن تناسب مثل هؤلاء فما كان منـي إلا أن أمعنـت النظـر في حياة هؤلاء الكُتاب وطريقة تفكيرهم وأسـلوب حيـاتهم فوجدتهم عبيدا في صورة الأحرار، فبحثـت فـي أسـيادهم فما وجدت إلا عبيـدا ويتحكمـون فـي شـعوب بأكملهـا إلا ما رحم ربي حتى وصلت إلى دولة عظمى تحكم العـالم تقريبا بأسره فما وجدت إلا مجموعة من العبيـد المـارقين قاموا بتشييد تلك الحضارة الماديـة الجبـارة التـي لا روح فيها (حضارة العبيد).

أخي القارئ: ستجد أثناء القراءة أحكاما غريبـة بالنسـبة لك وإني أعذرك بعض الشيء؛ لأنني أعلم أن الثقافة الدينيـة عند الكثير منا ضعيفة إن لم تكن منعدمة، على سبيل المثـال ستجد أنه يجوز للمرأة غيـر الحـرَة أن تكشـف شـعرها وذراعيها وتغني للأجانب غير المحارم، كما سـتجد أيضـا نظاما جديدا قديما بديلاً عن نظام الزواج، وهو مباح في عهد رسول ا ﷺ وصحابته من بعده ﷺ.

ولكن هل انقرض هذا النظام الآن؟ هـذا مـا سـنحاول الإجابة عليه في طيات هذا الكتاب.

أخي القارئ: الكتاب يحوي اجتهادا قابلاً للصواب، كمـا أنه قابل للخطأ ولست مسئولاً إطلاقًا أمـام ربـي ولا أمـام مخلوقاته عمن يتبع أحد هذه الاجتهـادات بـدون الرجـوع إلى علماء الأمة وهيئات الفتوى المعتمدة بهذا الخصوص.

وأهيب بعلماء الأمة وأرجو منهم الإسراع بدراسـة هـذا الاجتهاد وإبداء الرأي، بل وأخذ القرار بخصوصه.

وأدعو ا عزَ وجل أن يوفقنا لما يحب ويرضى، ولمـا فيه صلاح ديننا ودنيانا.

اللهم ما كان من توفيق فهو منك أنـت الخـالق الـرازق الملهم، وما كان من تقصير فهو مني ومن الشـيطان الـذي أقسم بعد طرده من الجنة قال تعالى: ﴿ **قَالَ فَبِعِزتِك لأُغْوِينهم أَجمعِين*إِلا عِبادك مِنْهم الْمخْلَصِين**﴾.

عندها قال ربُّ العزَّة، الملك الجبـار، العزيـز الغفـار ﴿**قَالَ فَالْحق والْحق أَقُولُ*لأَملأَن جهنم مِنْك ومِمـن تَبِعـك مِنْهم أَجمعِين**﴾.

اللهم ارزقنا الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وباعد بيننا وبين النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل.

المؤلف

منذ زمن بعيد، وقبل بعثة الإسلام والحبيب عليه الصلاة والسلام، كانت تظهر بين البشر فئة تُعـرَفُ باسـم العبيـد أو الرقيق، وتُعرَفُ نساؤها باسم الإماء.

وسمعنا جميعا عن قصص الظلم والهوان، والاضطهاد وضياع الحقوق التي تعرَّضت لها هذه الفئة، بل لم يكن لهذه الفئة أي حقوق مشروعة؛ فالعبد أو الأمة ملك لشخص يدَّعي أنه حرٌّ ومن حقه أن يتصرَّف في أي شـيء آخـر يملكـه من حيوان أو جماد أو طير.. إلخ، وكان العبد لا يملك سوى السمع والطاعة وتنفيذ ما يؤمر به، فهو ليس فقـط لا يملـك شيئًا وإنما هو بنفسه مملوك لغيره، بل هو وما يملـك ملـك لسيده؛ ولأن الإنسان همجي بطبعـه، عـدو لبنـي جنسـه، بل ولجميع كائنات الأرض تقريبا، ظلوم في قراراته، جهول في تصرُّفاته، فلم يفرق بين مـن يصـلح أن يكـون عبـدا ومن لا يصلح، بل لم يضع معيارا صـحيحا لهـذا الأمـر فأصبحت الهمجية- كعادة الإنسان دائما- هي التـي تحكـم

حياة البشر، فلا عقل، ولا علم، ولا فكـر، ولا أي شـيء. تجد رجلاً مسالما، مسـافرا مـن بلـده أو راجعـا إليهـا، معه أسرته- أو بمفرده- خرج عليهم قُطاع الطريق سلبوهم أموالهم وأمتعتهم ثم باعوه وأبناءه بأسواق العبيـد، وبـاعوا زوجته وبناته بسوق الإماء؛ فأصبحت هذه الأسرة الكريمـة من فئة العبيد، بينما قُطاع الطريق يُعـدُّون مـن الأحـرار. جهل وظلم تعوَدنا عليهما من بني الإنسان على مر العصور والأزمان.

ولنر عملية البيع كيف تكون؟!

يتعمد الخاطفون تفريق وتمزيق تلك الأسرة عنـد البيـع؛ فيباع كل فرد منهم بمكان بعيد تماما عن الآخـر، ولا يعلـم أي منهم عن الآخر شيئًا، حتى يقطعوا على هـذه الأسـرة أي أمل في اللقاء، أي بطريقة لا إنسانية بحتة يتمُ الاختطاف ويتمُ البيع، وتنشأ الرَقيق، وتكثر المآسي.

ولكن من هو أول من قنن نظام الرق واستعمله؟! وما هو تاريخ الاسترقاق؟ ومن هم الرَقيق وما تعريفهم؟ وهل هنـاك رق في عالمنا المعاصر؟!

في الصفحات القادمة سأحاول علـى اسـتعجال الإجابـة على تلك الأسئلة واستطلاع تاريخ الرق ونشأته عند الأمـم السابقة؛ حتى نصل لحاضـرنا وموضـوعنا وحضـارتنا: حضارة العبيد، ثم ندرس سويا مدى علاقة تلـك الحضـارة بديننا الحنيف ومبادئه السامية.

تعريف الرق:

الرَّقيق عند القدماء هو الإنسان الذي يمتلكه بحكم القوة أو القانون إنسان آخر يُطلَقُ عليه اسم "الحرُّ"، ويكون للحر على العبد حق الملكية؛ من استعمال واستغلال بلا أجر ولا مقابل وله أن يبيعه أو يقايض عليه أو يورثه لخلفه من بعده.

وقيل إن الرق هو تبعية قوم لقوم آخرين، وحرمان طائفة من البشر من الحقوق المباحة لآخرين.

ونادى بهذا التعريف الأستاذ محمد قطـب، بينمـا قـال أستاذنا الشيخ: سليمان بن عبد ا بن عبد الوهاب إن الـرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته فمـا اسـترق القلب واستعبده فهو عبده.

أنواع الرق

وما أراه هو أن الرق على ثلاث درجات:

١ - رق الجسد:

وهو أضعف أنواع الرق، وفيه يكون الجسد رقيقًا مستعبدا بينما العقل والقلب حرَين، ليسـا مسـترقين، وهـذا النـوع وإن كان رقيقًا في مظهره، ويعامل معاملة الرقيق إلا أنه حرٌ في حقيقته، فعقله وقلبه حران، وهذا النوع سيكون من السهل عليه التخلص من رقه؛ فرق الجسد هو أخف أنواع الـرق، ومثال على هذا النوع من العصور القديمة بعـض فلاسـفة اليونان وعلمائها ممن كانوا يعتبرهم مجتمعهم عبيدا مسترقين بينما هم أنفسهم من وضعوا مذاهب فلسـفية تُـدرَس حتـى عصرنا الحاضر، وأيضا بعض الصحابة الكرام ممن كـانوا يُعدُون من العبيد بينما صنعوا بإيمانهم وعزيمتهم ما يعجـز عنه كثير من الأحرار مجتمعين.

٢ - رق العقل:

وهو في الدرجة الثانية بعد رق الجسد، وفي هذه الحالـة يُبهرُ العقل بفكر هو أقوى منه يعجز عن مجاراتـه، ويسـلم العقل بذلك مع علمه يقينًا باستحالة أن يستطيع مجاراة هـذا الفكر أو التفوُّق عليه؛ وينتج عن ذلك أن يكون العقل تابعـا لهذا الفكر باستمرار مسلما بنتائجه، وهذا النوع من الرق هو أخطر من رق الجسد؛ ففي هذه الحالة يتمُّ اسـترقاق العقـل، وبالتالي فالجسد مسترق معه أو تبعا له، وذلك كرق الكثيـر منا للحضارة الغربية، فنجد الكثير منا يقلدونهم فـي كثيـر من الأمور ومختـارين ظـاهرا غيـر مجبـرين، ولكـنهم في الحقيقة مجبرون؛ وذلك لأن العقل تمَ استرقاقه، والجسـد ينفذ أوامره، وهذا النوع هو أخطر من رق الجسـد ولـيس من السهل الخلاص منه ولكن أيضا ليس من المستحيل.

٣ - رق القلب:

وهو أخطر أنواع الرق على الإطلاق، وفيها يصل الـرق إلى القلب فيتعلق بشيء ويحبه حبا يلغـي الفكـر والعقـل، مع العلم أو الجهل بوجودهما، وهذا النـوع مهمـا تنصـحه

أو تأتيه بأفكار لتقنعه فلن يصغي إليك؛ فقد استرق قلبه وألغى بإرادته عقله، ومثال على هذا النوع من تحكمت الشـهوات في قلبه فأصبح مسترقًا لها.

وقد يفعل رقيق القلب ما يخالف عقلـه ويضـرُ جسـده إرضاء لهواه، وهذا النوع هـو قمـة العبوديـة وأخطرهـا ومن الصعب الشفاء أو الخروج منه.

والواجب أن تصرف جميع هذه الأنواع الثلاثـة السـابقة من العبودية عزَ وجل، فهو الوحيد الحقيق بهـا، ولكـن الواقع أن من الناس من يعبد ا عزَ وجـل بجسـده فقـط، وأما عقله فيعتقد بصحة أفكار غير إسلامية إطلاقًا ولا تتفـق مع مبادئ الإسلام وروحه بل تتعارض معها؛ كمن يعتقد بأن القوانين الوضعية هي المناسبة لأوضاع المسلمين فـي هـذا العصر.

فهذا النوع لم يعبد ا بعقله؛ لأنه يجب على الإنسان كي يكون عبدا بعقله أن يعتقد اعتقادا جازما بأن فكرنا جميعا كبشر لا يرتقي بأي حال مـن الأحـوال لدرجـة أن نغيـر أو نبدل في شريعة ا عزَ وجل المنزَلة مـن فـوق سـبع سماوات، ففكرنا محدود وطاقاتنا محدودة لا تسـاوي شـيئًا

مقارنة بفكر وطاقة الخالق الوهاب، ومتى آمنا بذلك أصبحنا عبيدا بعقولنا، ومن لم يؤمن بذلك إيمانًا جازمـا صـادقًا كانت عبوديته ناقصة نقصانًا كبيرا، فعقله لم يسـترق عزَ وجل بعد وطالما أن العقل لم يسترق عزَ وجل فهـو رقيق لغير ا والعياذ با ، فالنفس إن لـم تشـغلها بـالحق شغلتك بالباطل؛ ولكي يُشفَى الإنسان من رق العقل فـلا بـد من إيمان يقر في القلب ويصدقه العمل بأن فكر البشر جميعا وعملهم وما وصلوا إليه وما سيتوصـلون إليـه لا يسـاوي أي شيء إذا ما تعارض مع نص صريح واضـح للكتـاب الكريم أو صحيح السنة النبوية الشريفة.

وعندنا القاعدة النبوية الشريفة: "صدق ا وكـذب بطـن أخيك".

ولكن أنبه هنا أننا ينقصنا كمسلمين خـلال تلـك الحقبـة الزمنية الفهم الصـحيح المتطـور لكتـاب ا عـزَ وجـل ولأحاديث رسول ا ﷺ، ولا بد من فتح باب الاجتهاد مـرة أخرى لمن تتوافر فيهم شروط الاجتهاد؛ فالإسلام دين صالح لكل زمان ومكان، وعلينا أن نفهمه الفهم الصحيح المناسـب حسب كل زمان ومكان، وهذا من معجزات ديننا الحنيف.

وأقول لمن استرقت عقولهم لغير ا   واغتروا بفكر البشر ونظرياتهم يكفيكم ما أثبته العلم الحديث نفسـه فـي نظريـة النسبية والتي تثبت أن كل ما نراه ونسمعه ونحسه بحواسـنا ما هي إلا أمور نسبية لا وجود لها في الحقيقة؛ فنحن مـثلاً نرى أنفسنا على الصورة التي نعرفها جميعا بينمـا هنـاك كائنات لا ترى من الإنسان سوى الهيكل العظيم فقط؛ لأنهـا تنظر بأشعة "X"، وكائن آخر لا يرى من الإنسان سوى هالة ضوئية حوله تمثل الطاقة الاستاتيكية المنبعثة مـن الجسـم البشري، كائن آخر لا يرى الإنسان ولا يعتـرف بوجـوده كالكائنات الأدق من الذرة فلا فرق عندها بـين ذرة هـواء وذرة جسم بشري فكلها مكونات ذرة وفضاء.

أيضا ما نسمعه هي تـرددات بسـيطة تسـمعها بعـض الكائنات بصور مختلفة بينما كثير من الكائنـات لا تسـمعها مطلقًا، وكذا باقي الحواس، إذن فما هي الصـورة الحقيقيـة للإنسان؟! هل هي ما يراها لنفسه أم أنهـا هيكـل عظمـى كما يراها بعض الكائنات أم ماذا؟ وهل وجود الإنسان هـو وجود مطلق أم أنه نسبي فقط؟

وأقول إن الحقيقة لا يعلمها سوى الحق عزَ وجل؛ فلكي نرى اللون الحقيقي فلا بد أن ننظر بجميع الأطوال الموجبة الموجودة بالكون، ولكي نسمع الصوت الحقيقي فلا بد أن نسمع بجميع الترددات الموجبة الموجودة بالكون، ولا يتأتى ذلك سوى للخالق عز وجل وربما من ارتضى من رسله وعباده؛ كرسولنا ﷺ العبد الصالح عليه السلام. وآخرين لا نعلمهم ا يعلمهم، فعلم الحقيقة علم عميق بحره ممتد فسيح سطحه باعتبار أن له عمق وسطح، والأمر في الحقيقة غير ذلك، فكل ما خطر ببالك فعلم الحقيقة غير ذلك، فلا يعلم الحقيقة سوى الحق عزَ وجل وربما كان الحق هو الحقيقة، ولا حقيقة سوى الحق عزَ وجل وما عدا ذلك فكائنات نسبية الوجود، نسبية الشكل، نسبية السمع، نسبية الحواس... إلخ.

فكيف يستطيع كائن نسبي أن يصيغ قانونًا مطلقًا للطبيعة؟

لهذا نرى أنه من وقت لآخر، تتغير جميع القوانين والنظريات البشرية، ويتمُ تحديث بعضها، وإلغاء البعض الآخر، وبعد فترة، يتمُ اكتشاف خطأ ما تمَ تحديثه؛ فيُلغَى وتوضع نظريات أخرى ليتمَ إلغاؤها وتحديثها فيما بعد،

وهكذا حتى يقضي ا   أمرا كان مفعولاً؛ ولذا قال تعالى وهو أصدق القائلين مخاطبا للإنسان:

﴿وما أُوتيتُم من العِلْمِ إلا قَلِيلاً﴾

وقال ﷺ: "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد".

فإنني أعتقد أن الإنسان في حقيقة الأمر صنفان: إما جاهل وإما جهول؛ فالجاهل هو من يجهل ولكنه يعلم أنه يجهل فهو طالب للعلم باستمرار من مهده للحده، وكلما ازداد علمه كلما ازداد علمه بجهله فيجري ويتعلم ويجتهد في طلب العلم، وكلما ازداد علمه كلما ازداد علمه بجهله حتى يموت وما أوتي من العلم (في حقيقة الأمر) إلا قليلاً. مع أنه بهذا القليل بالنسبة لباقي البشر الجهولين هو العالم الكبير، والبحر الفهامة فريد عصره وأوانه... إلخ.

ولذا أعجبني ببعض دول الخليج، أنهم يطلقون على علمائهم اسم طالب علم، ولا يقولون عالما، وهذا أقرب للحقيقة، وقديما قالوا اثنان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال.

أما الجهول، وهو من عليه- والعياذ با - الأكثرية من بني الإنسان بدليل قوله تعالى: في وصفه للإنسان

﴿إنه كان ظلُوما جهولاً﴾ فالجهول هو من يجهـل، ويجهـل أنه يجهل، فجهله مركب والعياذ با ؛ فيظنُ في نفسه العلـم رغم جهله المطبق، ولا يسعى لطلب العلم، فعنده من الجهل ما يكفيه، ويحول بينه وبين علمه بجهله، فلِم يطلـب العلـم إذن؟!

أخي القارئ: -

اعلم أن حواس الإنسان جميعها نسبية، أما عقله وعواطفه فقد تكون مطلقة، فإذا ما أدخل لهذا العقل معطيـات نسـبية، فستكون النتائج كذلك نسبية، وأمـا إذا اسـتطعنا أن نـدخل لعقولنا معطيات مطلقة، فقد تكون النتائج مطلقة كذلك.

ومشكلة الإنسان فيما مضـى مـن الـزَمـن وبخاصـة في حضارته المادية الحالية، أنه قد اعتمـد علـى حواسـه في نظرياته العلمية وتفسيراته للظواهر الطبيعية.

أي- بمعنى آخر- حـاول صـياغة قـوانين للطبيعـة ونظريات مطلقة من خلال معطيات نسبية أدخلها لعقله.

ولذا فكثير من النتائج كانت وما زالت خاطئـة وبعيـدة عن الصواب، أما النصوص الشرعية سـواء مـن الكتـاب

(القرآن الكريم) أم السنة النبوية الشريفة فهي نصوص مطلقة من قبل الله عزَّ وجل؛ فإذا ما حدث تناقض بين النص الشرعي وبين النتائج العلمية أو النظريات الفكرية، فيجب علينا أولاً أن نفهم النصَّ الشرعي فهما صحيحا، ثم نقدم فورا النصَّ الشرعي على أي نتائج فكرية أو علمية؛ فكلها نتائج نسبية بالية.

وإذا أردنا أن نتقدَم أكثر فعلينا في ضوء ما فهمنا من النص الشرعي أن نبحث لنثبت بالدليل العلمي للآخرين صحة النص الشرعي وخطأ ما يناقضه من نظريات بشرية.

وهذا واجب على كل مستطيع منا، ومسئولية أحملها لكل قارئ، كل حسب مقدرته ومسئوليته، واعلم أخي القارئ أن النصوص الشرعية بها كثير من المعجزات العلمية يجب أن نكتشفها قبل غيرنا؛ ولذا قال الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام فيما معناه (من أراد الدنيا فعليه بالقرآن ومن أراد فعليه بالقرآن ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن؛ ومن أرادهما معا فعليه بالقرآن)، وقال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿**سنُريهم آياتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنْفُسِهم حتى يتَبين لَهم أَنه الْحق**﴾.

والأمثلة للمعجزات العلمية بالقرآن الكريم كثيرة. ناقضتها النتائج العلمية لسنوات طويلة، قبل أن تتطوَر وتتحدَث هـذه النتائج لتوافق النص الشرعي المطلق المنزَل من قبل المولى عزَ وجل منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام فأين نحن من علم ا وقدرته وعظمته.

فيجب أن تُسترق عقولنا عـزَ وجـل حتـى تتحـرر من الرق لأي شيء سواه، ويجب أن نعلـم ونعتقـد ونبنـي حياتنا على أساس أننا كبشر مهما أوتينا من العلـم ومهمـا توصلنا إليه من نتائج وتطبيقات علمية فكل هـذا لا يسـاوي شيئًا إذا ما تعارض مع نص شرعي واحد نفهمه فهما جيدا.

وعلى غير هذا الأساس فعبودية العقل ناقصة؛ وبمقدار هذا النقصان تكون العبودية لغير ا ، وبمعالجة هذا النقصان يتحرر العقل من كل ما ينافي دين ا الحنيف، ويسلم العقـل أمره كله عزَ وجل، وتتحقق في هذه الحالـة العبوديـة عزَ وجل بالجسم والعقل.

أما العبودية بالقلب عزَ وجل فهي أرقى وأنقى وأجـل أنواع العبودية، وسأحاول أن أتكلم عنها رغم عـدم أهليتـي

لذلك وأسأل ا عزَ وجل أن أكون من أهلها "اللهـم اجعلنـا من عبادك المخلصين" آمين.

القلب هو بيت الرَب عزَ وجل، قال رسـولنا الكـريم ﷺ فيما يرويه عن رب العزة (لا تسعني أرضـي ولا سـمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن).

والقلب هو موضع نظر الرَب عزَ وجل قال عليه الصلاة والسلام (إن ا لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

وقال عليـه الصـلاة والسـلام فـي تعريـف الإيمـان (الإيمان هو ما وقر في القلب وصدَقه العمل).

وقال عليه الصلاة والسلام في وصف إيمـان الصـحابي الجليل وأول الخلفاء الراشدين أبا بكر الصديق ﷺ (ما فضلكم أبا بكر بصلاة ولا صيام ولكن فضلكم بشيء وقر في قلبه).

وأول حديث نبوي شريف أُفتتِحت به كتب السنة الشريفة هو عن عمر بن الخطاب ﷺ عن سيدنا رسول ا ﷺ قـال: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمـن كانـت هجرته إلى ا ورسوله فهجرته إلى ا ورسوله ومن كانت

هجرته إلى دنيـا يصـيبها أو امـرأة يتزوجهـا فهجرتـه إلى ما هاجر إليه). ومعلوم أن القلب هو مكان النية.

ولذا كان دعاء النبي ﷺ "اللهم اجعل الدُنيـا فـي أيـدينا ولا تجعلها في قلوبنا".

وكان من دعائه أيضا ﷺ:

"يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينـك"، ومـن أحاديثـه الشريفة قال ﷺ: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صـلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب...".

ويتضح مما سبق من الأحاديث النبوية الشـريفة منزلـة القلب في العبادة وعظم شأنه ومكانته؛ فإذا صلح القلب فقليل من عمل الجوارح قد ينجي، وإذا فسد القلب- والعياذ بـا - فمهما عملت الجوارح من عمل فهباء منثور قـال تعـالى: ﴿**وقَدِمنَا إِلَى ما عمِلُوا مِن عملٍ فَجعلْنَاه هباء منثُورا**﴾.

ولكي يكون المؤمن عبدا بقلبه فلا بد أن يكون هـواه تبعا لما جاء به الصادق الأمين عليه الصلاة وأذكى التسليم، وبمقدار التفريط في ذلك تكون العبودية للهوى والشـهوات؛ ولذا قال عليه الصلاة والسلام "ألا إن فـي الجسـد مضـغة

إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسـد الجسـد كلـه ألا وهي القلب".

اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنـا علـى دينـك يـا رب العالمين. فعمل القلب هو من أهم الأعمـال وعلـى حسـب إخلاص القلب يكون ثواب عمل الجوارح.

فعلى سبيل المثال إذا تبرَع مجموعـة مـن الأشـخاص مختلفي الظروف بمبلغ من المال متساوٍ لحساب هيئة خيرية معينة فهل سيكون الثواب واحدا ومتساويا لكل منهم؟

بالطبع لا؛ لأنه وإن اتحدت الصورة، إلا أن القلب لـيس بواحد، فمن هؤلاء الأشخاص مـن لـيس بمسـلم، ومـنهم المنافق، ومنهم المرائي، ومنهم المتكبر، ومنهم من يتصـدَق لأداء نذر قد نذره، أو ابتغاء شفاء مريض ليه؛ ومـنهم مـن يتصدَق حرجا من مندوب اللجنة الخيرية الذي ألحَ في طلبه، ومنهم من يتصدَق بوازع الشفقة على اللاجئين، ومنهم مـن يتصدَق وهو يعطي المال عزَ وجل صاغرا ذليلاً يرجو أن يتقبل ا منه ويخشى ألا تقبل صدقته ويخشى على نفسه الشرك والرياء والكبر ويبتغى كل ما تقـدَم مـن فضـائل. وأيضا لا ننسى ما يمثله المبلغ المتصدَق بـه مـن النسـبة

من مال المتصدق؛ فستجد أن منهم من تصدَّق بماله كله ومنهم من يمثل هذا المبلغ نصف ماله، ومنهم من لا يمثل هذا المبلغ له أي شيء.... إلخ.

كذلك المصلي، فكثيرون يقفون للصلاة أمام الملك الجبار، ويفتحون الصلاة بالتكبير "الله أكبر" بلسانه، ويعقلها آخر بعقله، ويؤديها ثالث بقلبه؛ والذي يؤدي بقلبه فهو على درجات كثيرة، كما سبق وبيننا في المتصدق. ولأن المقام هنا لا يتسع لشرح موسع عن أعمال القلب وأمراضه ولكني أرى أنها من الأمور المهمة، والواجب دراستها ومعرفتها لكل مسلم، فعمل القلب من الأعمال الجليلة، ومرض القلب من الأمراض المهلكة والعياذ بالله، تخيل مجموعة من المصلين تقول جميعا الله أكبر ومع ذلك ورغم اتحاد المظهر إلا أن النتيجة مختلفة تماما فمنهم من تزداد ذنوبه لريائه وشركه، ومنهم من يأخذ درجة، ومنهم من يأخذ سبعمائة ضعف من الحسنات، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

لذا أوصيك أخي القارئ بالاهتمام الكبير بإصلاح نيتك واستحضارها عند كل عمل تقوم به؛ فعلى أساس تلك النية

ستكون محاسبتك على عملك، قال عليـه الصـلاة والسـلام (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...) واعلم أنك تعمل لرب عظيم كريم قوي عزيز غنـي حميـد لا يقبـل الشرك؛ فمن أشرك معه غيره تركه وشركه، اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم. آمين.

ولأهمية أعمال القلـب ولخطـورة أمراضـه أوصـيكم بالاستزادة في هذا المجال من المرجع العظيم لأستاذنا الكبير الإمام الغزالي نفعنا ا بعلمه وتقواه "إحيـاء علـوم الـدين" أحيا ا قلوبنا وقلوبكم أجمعين.

فيجب أن تُسترق قلوبنا عـزَ وجـل حتـى نتحـرر من العبودية والاسترقاق لغيـره، فالإنسـان إمـا عبـد وإما عبد لكثير من الأمور سواه، قال تعـالى: ﴿**ضـرب ا ُ مثَلاً رجلاً فِيهِ شُركَاء متَشَاكِسون ورجلاً سلَما لرجـلٍ هـلْ يستَويان مثَلاً**﴾. والآن بعد أن قمنا بتعريف الرق وتقسـيمه إلى ثلاث أقسام؛ رق الجسـد؛ ورق العقـل، ورق القلـب. فسأحاول في السطور القادمة استطلاع تاريخ الرق ونشـأته بالأمم السابقة.

تاريخ الاسترقاق: -

عُرِفَ الرق بالبشرية منذ القدم، وإن كنت لا أدري من هو أول من قنن الرق واستعمله سواء من الأفراد أو المجتمعات، وإن كان هناك بعض الآثار تدل على وجود الرق بالمجتمعات البدائية وهي مجتمعات ما قبل التاريخ، والبعض يعتقد أن الرق نشأ مع بداية المدنية والاستقرار لبني الإنسان، وأيا كان هذا الرأي أو ذاك فلا أعلم دليلاً قويا يرجح أحد القولين على الآخر، كما لا أجد ضرورة لتعميق البحث في نشأة الاسترقاق، فلا أجد فائدة كبيرة في ذلك، مما يجعلني أوفر هذا الجهد لاستعراض سريع للاسترقاق أو الرق عند الأمم السابقة.

١ - الرق عند الإغريق: -

الإغريق اشتهروا بالفلسفة، وقدَّموا لنا العديد من الفلاسفة الذين ذاع صيتهم بين الأمم وعلى مر العصور، أمثال أرسطو وسقراط وأفلاطون وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم، ومع ذلك فكانوا جميعا مؤيدين لنظام الرق، بل كانوا

لا يتصوَرون الحياة بغير رقيق؛ رغم المعاملـة اللاإنسـانية البحتة التي كان يلاقيها الأرقاء.

فهذا أرسطو يقول: (لا يزال في العالم أنـاس مخلوقـون للسيادة وآخرون مخلوقون للطاعة).

وأما أفلاطون فيقـول مخاطبـا شـعبه (كلكـم إخـوان في الوطنية ولكن الإله الذي خلقكم وضع في طينة بعضـكم ذهبا ليمكنهم من أن يكونوا حكاما؛ وهؤلاء هم المميـزون، ووضع في طينة المساعدين فضة؛ وفي العبيد حتى يكونـوا زرَاعا وعمالاً وضع نحاسا وحديدا). ولم يجرؤ أحد هـؤلاء الفلاسفة على مجرَد طلب إلغاء الرق، فالرق عنـدهم كـان من ضروريات الحياة ومعترفًا بشرعيته من قبـل الدولـة، ولكنه كعادة الإنسـان كـان نظـام الـرق مبنيـا عنـدهم على الهمجية والظلم والقسوة، وقد نظم حكامهم ومشـرعوهم القرصنة والسطو على القوافل والمسافرين لسـرقة النـاس واسترقاقهم؛ بل كانوا يعتبرون أن القرصنة والخطـف هـي مهنة الأحرار والأشراف، وأي حريـة هـذه وأي شـرف؟ ولكنها همجية الإنسان، والغريب أن هذه الأمة عنـدما كـان يزيد الرقيق عندهم عن القدر المطلوب كانوا يقومون بقـتلهم

حفاظًا على الأمن والسلامة، وإنني لأتساءل؟ كيف يستحلون خطف الناس واستعبادهم ويسرفون في ذلك بطرق إنسـانية متعددة ثم يستحلون قتلهم حفاظًا على الأمن؟ إنها الإنسـانية تتجلى في أسمى صورها!!

٢ - الرق عند الرومان: -

الرومانيون هم أمة اشتهرت بالتقنين، حتـى إن قوانينـا الحديثة ما زالت متأثرة بتقنينهم، ومع ذلك كـانوا يعتبـرون الرقيق شيئًا، لا شخصا، ولم يكن من حقه أن يلجأ للقضـاء؛ فشأن الرقيق عندهم كشـأن الحيوانـات والجمـادات. ولأن الرومان كانوا قد غزوا الإغريق؛ لذا فقد اسـتعبدوا كثيـرا منهم، بالإضافة لمن استبعده بعد فتحهم لبلاد الغال؛ مما سبب زيادة أعداد المسترقين لديهم زيادة كبيرة.

وكانت قوانينهم تساعد على الرق من أبواب عدَّة؛ فالحرب عندهم هي من أهم المصادر، كذلك كان للقاضـي عنـدهم أن يسترق من يتهرَّب من دفع الضرائب، أو من أداء الخدمة العسكرية، وكذا المدين عند عدم مقدرته على تسـديد دينـه؛ وابن الرَّقيقة كان يقيد رقيقًا بغض النظر عن أبيه.

ولا نستطيع أن ننكر أن مدنية الرومان الرائعـة قامـت على مجهودات العبيد حتى الفنون الجميلة، كالمعمار والرسم والموسيقى، كان للعبيد اليد الطولى في إنمائها، ولكن مع ذلك فلم يعرف التاريخ أقسى من الرومان على عبيدهم ربما لأنهم أمة القوانين، وربما لكثرة العبيد لديهم.

ذلك مما جعل بعض فلاسفتهم تأخذهم الرحمـة والشـفقة بالعبيد، بل فكروا تفكيرا منطقيا جميلاً يُحمدُ لهم، رغم عـدم جرأتهم للمطالبة بتحرير العبيد. فهذا كانوا يقول: (إن الـرق الحقيقي هو استرقاق الشهوات لنا لا السادة بسـياطهم وآلات تعذيبهم).

وهذا شيشرون كتب خطابا لصديقه لوكليوس يقول فيـه: (إنني جد مرتاح أن أسمع منك أنك تعامل عبيـدك بحنـان، وإن ذلك ليرجع إلى رجاحة عقلك، وإلى علمك. أهـم عبيـد حقًا؟ إنهم أيضا رجال كاملون. أهم عبيد حقًا؟! إنهـم أيضـا رفاق لطفاء محببون، أهم عبيد حقًا؟! لا إنهم أصدقاء أوفياء مسترقون أهم أصدقاء؟ نعم هم أصدقاء أمناء ولكنهم مع ذلك أصحاب رق وألفاء عبودية! ثم يقول: إذا فكرنا طويلاً سنجد

أننا جميعا عبيد.. عبيد للشهوات وعبيد للمال". كلام جميـل يسبق عصره بعصور وسيأتي بيان ذلك فيما بعد.

٣ - الرق عند الأوربيين: -

كانت شعوب أوربا تنكر آدمية الأرقاء ولـيس للـرَقيـق أي حق قانوني أو مدني بل هـو كالمتـاع والأثـاث يفعـل به مالكه ما يشاء، وكان من قوانينهم أن المرأة إذا تزوَجـت من رقيقها يتمُ حرقهما سويا.

٤ - الرق عند الجرمانيين: -

عرفوا الرق، واسـترق أغنيـاؤهم فقـراءهم وأسـرفوا في الربا والميسر، حتى أنهـم كـانوا يقـامرون بنسـائهم وأولادهم، ثم بأنفسهم، وإنني لأتعجب من هذه المهزلة ولكنها حقيقة الإنسان فماذا نقول؟!

٥ - الرق عند الهنود: -

عرف الهنود وبلاد الشرق الرق كما عرفته أوربا تماما، وكانوا يعتبرون الرقيق فئة لا تمت إلـى الآدميـين بصـلة، وقد قسم فلاسفة الهنود أمتهم إلى أربع طبقات: -

أ - الكهنة: وهم رجال الـدين. ب - الكشـترية: وهـم الجنود. ج- الويشية: وهم التجار والزرّاع.

د - الشودرا: وهم العبيد.

ويقول فيلسوفهم منو: - (أراد الرّب تكاثر الجنس البشري فخلق من فمه البراهمة الذين هـم الكهنـة، ومـن ذراعـه الكشترية، ومن فخده خلق الويشية، ثـم خلـق مـن رجلـه الشوادر) ولا داعي من الإكثار من هذا التهريج.

٦ - الرق عند الصينيين: -

استرق الصينيون أسرى حروبهم، كما كان عندهم يجـوز للإنسان أن يبيع نفسـه أو زوجتـه أو أولاده لسـداد دينـه أو للخروج من مأزق مادي ألمّ به، وكانوا يعتبرون أن العبيد شيئًا لا شخصا، فيباع ويشترى كقطعة أثاث أو غيره، رغـم أن معاملتهم للعبيد كانت أرق من غيرهم بكثير.

وقد صدر قانون كوانجو والذي مفـاده (خضـوعا لإدارة خالق الأرض والسماء فإن الرجل هو أنبل المخلوقات، فالذين يقتلون العبيد لا يمكن مسامحتهم، والذين يحرقـون أجسـاد العبيد بترقيمهم فإنهم يعاقبون، وللحكومـة أن تمـنح العبـد

المرقوم حريته، وللعبد أن تكون له عائلة في وسـط العائلـة التي تملكه، وقد كان عندهم نوعان من الرقيق:

١ - رقيق عام: - وهو ملك للدولة.

٢ - رقيق خاص: - وهو ملك للأفراد.

كما كان من المستحيل عندهم تحوُّل العبد للحريـة مهمـا دفع من المال.

٧ - الرق عند المصريين: -

كان مصر كعادتها كنانة ا في أرضه، من أرادها بسوء قسمه ا ، مهبط الوحي؛ أرض الأنبياء.

عرف المصريون القدماء الرق كما عرفه العـالم أجمـع خلال عصرهم، لكنهم تميزوا بأنهم كانوا رحماء عطـوفين بالرقيق.

لم يكن من حق جميع أفراد الشعب امتلاك رقيـق مهمـا بلغت ثروات تلكم الأفراد وإنما كان حق الاسـترقاق حكـرا على طبقتي الكهنة والمحاربين فقط، ومصادر الرق عنـدهم كانت فقط الحروب وتكاثر الرقيق بالولادة، وأما الدين فكان يستحيل للدائن أن يسترق مدينه، كما أنه كان يجـوز للعبـد

أن يتزوَج بحرة، بل ويرتفع لمنزلة الأحرار حتى يصير حاكما.

وكان العبيد تصان جميع حقوقهم ولهم أن يتحاكموا أمام المحاكم لأخذ حقوقهم، وأي سيد يقتل عبده فجزاؤه الإعدام، وهذا الأمر في حينه يعتبر رحمة عظيمة ونقلة للعبيد ليست بسيطة.

٨ - الرق عند اليهود: -

اليهود هم قوم أهل كتاب، نزل فيهم كثير من الأنبياء، وهذا من فضل ا عليهم وكرمه قال تعالى: - ﴿**يا بني إسرائيلَ اذْكُروا نِعمتِي الِتي أَنْعمتُ علَيكُم وأَني فَضلْتُكُم علَى الْعالَمِين**﴾ أي فضلتكم برسالاتي وإن كان للأسف كثير من هؤلاء الرسل كُذبوا وقُتِلوا، والآن هم قوم رأسماليون، وتدين الحضارة المادية الحديثة إليهم بكثير من العلوم والفنون، عرفوا الرق كما عرفه كثير من شعوب الأرض، ولعصبيتهم لأبناء دينهم فرّقوا بين اليهودي وغير اليهودي في كثير من الأمور، مصادر الرق عندهم متعددة أهمها الحروب، ثم تكاثر الرقيق بالولادة، وكان من الجائز عندهم الاسترقاق بالدين، كذلك يجوز استرقاق أسرة ألجأتها الفاقة

إلى الاسترقاق، ولكنهم فرّقوا بين الرقيق من اليهود والرقيق من غير اليهود، ويشرح ذلك ما جـاء فـي سـفر التثنيـة في الإصحاح العشرين، وسفر الخروج الإصـحاح الحـادي والعشرين وستلاحظون الفرق والتمايز.

فما جاء في سفر التثنية (أمر الـرّب أن كـل محاربـة إذا انتصر عليها اليهود يكون جميع أهلها من رجال ونسـاء وأطفال عبيدا لهم يسخرونهم إلى الأبد بدون شرط ولا قيـد) وما جاء في الإصحاح التاسـع مـن سـفر التثنيـة أيضـا (إن ا حرّم العبودية على أولاد كنعان بن حام) أما بالنسـبة لرقيق اليهود فما جاء في سفر الخروج الإصـحاح الحـادي والعشرين (إذا اشتريت عبدا عبرانيا فسـت سـنين يخـدم، وفي السابعة يخرج حرا مجانًا، إن دخل وحده يخـرج، وإن كان بعل امرأة فتخرج امرأته معه، وإن أعطاه سيده امـرأة ولدت له بنين وبنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده ويخرج هو وحده، ولكن إذا قال العبد أحبُ سيدي وامرأتي وأولادي ولا أخرج حرا، يقدمه سيده إلى باب المدينة ويثقـب أذنـه بالمثقب فيخدمه إلى الأبد.

أما معاملة اليهود للرقيق فكانوا يسـتغلون فتيـاتهم فـي البغاء؛ للاستفادة من أجورهن، وللسـيد أن يسـتغل العبـد في أي عمل يريده وبدون مقابل.

إلا أن تعاملهم مع الرقيـق عمومـا كـان أقـل قسـوة من غيرهم من الهنود واليونان، ربما يرجع ذلك لأنهم كانوا عبيدا عند المصريين، وكان المصريون رحيمين ورءوفـين بعبيدهم.

٩ - الرق عند النصارى: -

الديانة المسيحية هي المنزَّلة على المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، عبد ا وكلمته، ألقاها إلى مـريم العـذراء وروح منه، بُعِثَ عليه وعلى نبينا الصلاة والسـلام رحمـة وتسامحا، فالديانة المسيحية هي ديانة تهذيب وحب وتسـامح وتبشير بالحبيب القادم المصطفى عليـه الصـلاة والسـلام، وليست ديانة تشريع؛ لذا فلا يوجد بالمسيحية، لا بخصـوص الرقيق ولا بخصوص غيرهم.

فلن تجد بالأناجيل أي عبارة تمقـت الـرق وتسـتنكره، بل ولن تجد عبارات تحث على عتق الرقيـق وتحريـرهم، ولقد دعا السيد المسيح عليه وعلى نبينـا الصـلاة والسـلام

للمساواة بين الناس، وأمـا الكنيسـة فكـان مـن الصـعب عليها أن تستمرَّ في هذه الدعوة بعد وفاة المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وكما سبق وقلنا، فالرَّقيق كان عبـارة عن واقع اجتماعي يصعب تصوُّر إلغائه كما يعتقد البعض.

الرقيق هو ضرورة اجتماعية عبر جميع العصور يستحيل إلغاؤها كما يعتقد آخرون؛ لذا فقد استسلمت الكنيسة للظروف الاجتماعية المحيطة، وأعلنـت أن المسـاواة التـي تـدعو إليها هي مساواة في الروح فقط، أما الجسد فقد خُلِـقَ لهـذه الدنيا، وعليه أن يخضع لكل ذي سـلطان عليـه، وبمـرور الوقت وعندما كان يذهب العبيد للكنيسة ليشتكوا مـن ظلـم الأسياد لهم، كانت توصيهم القساوسة دائما بالصبر والطاعة العمياء، حتى أن بولس رسولهم (أمـر العبيـد أن يطيعـوا سادتهم في خوف وخشية كما يطيعوا المسيح).

ويقول تيموتيه وهو رفيق بولس: (إنه يجب على العبيـد أن ينظروا إلى سادتهم بإجلال واحتـرام) ويقـول قديسـهم بطرس (للعبيد أن يخضعوا لسادتهم بخشوع) ويقول قديسـهم باريك (متعين على العبد أن يطيع سادته بكل إخلاص وبطيبة قلب تمجيدا ، وإن العبد لا يجوز له أن يفـرَّ مـن سـيده

وإلا كان آثما ويجب إرجاعه لسيده مـرة أخـرى) ويقـول قديسهم أزيدور: (إن العبد المسيحي يجب أن يظـل عبـدا، وإنه إذا منحت له الحرية فعليه ألا يقبلها؛ فإن خدمـة العبـد على الأرض هي خدمة للسيد في السماء). ويقول رسـولهم بطرس: (ولما كانوا لا يستطيعون العودة إلى الحرية فعلـيهم أن ينشدوا هذه الحرية في الإخلاص في العمـل والتحـرُر من الخوف والحب حتى تنتهي آجالهم فيتحررون من الأرض في ملكوت السماء) ومن هنا يتضح أن مواقف الكنيسة كانت دائما في صف السادة والحكام وأصحاب الأموال ضد العبيد والفقراء والمعدمين وكان من الواجب ألا يكون ذلك.

وهذا الموقف الغريب من رجال الدين المسيحي هو الذي جعل ماركس يعـادي الأديـان ويقـول مقولتـه الشـهيرة (الدين أفيون الشعوب) أي المحيط والمهدئ لها فكلما جاءت ثائرة غاضبة، الفئات المعدمة من فقراء وعبيد الشعب، تشكو للكنيسة من ظلم وابتزاز الأغنياء لهم، أوصـتهم القساوسـة بالصبر وإفناء أنفسهم في الذل، وأوهموهم بأن الواقـع هـو الصواب، وأن عليهم السمع والطاعة؛ مما سبب زيادة عمـر الاسترقاق، واستعبدت شعوب لفترات طويلة وعصور عديدة.

١٠ - الرق عند الأعراب: -

الأعراب قبل الإسلام قوم همجيـون بطـبعهم لا عهـد لهم ولا ميثاق قال الله تعالى فيهم: ﴿**الأعراب أَشَدّ كُفْرا ونِفَاقًا وأَجدر أَلا يعلَموا حدود ما أَنْزلَ الله علَى رسولِهِ**﴾ تحكمهـم العاطفة والعصبية ولا عقل لهم ولا فكر، التخلـف طـبعهم، والتفاخر والكبر حياتهم، والأمل في إصلاحهم بغير الإسـلام ضعيف، ولهذا قـال الله تعـالى فـيهم ومخاطبـا إيـاهم: ﴿**لَقَد أَنْزلْنَا إِلَيكُم كِتَابا فِيهِ ذِكْركُم أَفَلاَ تَعقِلُون**﴾ أي لقد أنزلنا إليكم كتابا عظيما وهو القرآن الكريم فيه رفعتكم بين الأمـم إن تمسكتم به وعملتم بما فيه، وأما إن هجرتموه وتركتمـوه واعتمدتم على عقولكم، فستفشلون وتتخلفون.

عرف الأعراب الرق كما عرفته الأمم الأخرى، وكانـت مصادر الرق عندهم متعددة، فمع كـونهم كـانوا يعيشـون في قبائل متفرقة متناثرة عبر الصحراء، ومنـازلهم عبـارة عن خيمة من الصوف، وحياتهم بدائية بسـيطة إلـى أبعـد درجة، وبين كل قبيلة وأخرى مسافة بعيدة من صحراء قاحلة ورمال ملتهبة وجبال شاهقة، ورغم هذه المسـافات البعيـدة والمتعددة إلا أنهم كانوا يجتمعون جميعا على خصال تميزهم

جميعا عن غيرهم، فكان يجمعهم الكرم والشجاعة والشـهامة والأدب الفصيح، إلا أن كل فرد كان يتعصب لقبيلته، وكـل قبيلة تحارب الأخرى وتحقد عليهـا، وكانـت تقـوم بيـنهم الحروب ويقتل فيها الكثير من الأعداد، ولأتفه الأسباب، تقوم الحروب ويكثر الرقيق، ومنتصر اليوم مهزوم بالغد.

كثر الرقيق عندهم؛ فمن الحروب تارة، ومن التوالد تارة أخرى وخاصة أن الأعرابي كان لا يعتـرف بابنـه وابنتـه من صلبه لمجرد أن أمهما أمة مسترقة رغم أنها قد تكـون إنسانة حرَّة عربية حارب هـو أهلهـا وقـتلهم وسـرقها، وقد تكون هذه الأمة المسترقة أفضل منه ومن قبيلته كلهـا، وكذلك كان من أبواب الرق المتعارف عليها عندهم الهجـوم على القوافل، لنهب ما فيها واسترقاق أهلها؛ لذا تجمع عندهم كثير من الرقيق، ومن أجناس مختلفة، استعملوا فـي كافـة المجالات الشاقة، وعُوملوا معاملـة قاسـية، ربمـا ليسـت عن عمد وقصد، وإنما هـي طبيعـة الصـحراء الموحشـة القاسية، والتي طبعت على قلوب ساكنيها وعقولهم؛ فأصبحت قلوبهم قاسية، والعصبية تحكمهم، وأكتفي بهذا القـدر لأبـدأ الكلام عن الرق في الإسلام.

١١ - الرق في الإسلام: -

بعث رسولنا الكريم ﷺ وبعث الإسلام، والعرب- كعادتهم حتى اليوم- قبائل متفرقة وكـل قبيلـة تتفـاخر وتتبـاهى على القبائل الأخرى؛ ونتيجة لذلك تولدت العداوة والبغضـاء والكراهية بين هذه القبائل، فكانت بينهم الحروب والمنافسات والويلات وتغير بعضهم علـى بعـض ولأتفـه الأسـباب كما تقدَم، فكنت ترى قبيلة تعيش في سلام ووئام، وبينما هم نيام بالليل، إذ فوجئوا بهجوم مباغت غادر من قبيلة أخـرى، أو مجموعة من قطاع الطرق، يسلبون أموالهم، وممتلكـاتهم، ويسبون نساءهم وأطفالهم، ويقتلون رجالهم، وتؤخذ هذه الفئة المهزومة بالغدر وتُباعُ بسوق الرقيق، بينما الفئة الغادرة هم من كبار الأحرار؛ نتج عن هذه المهزلـة أن أصـبح كثيـر من الأحرار هم في وضع العبيد، بينما كثيـر مـن العبيـد يعاملون معاملة الأسياد، فهو سيد في قومه بينما هـو عبـد في حقيقته، طبائعه وسلوكه هم طبائع وسلوك العبيد، لا فكر ولا هدف، يعيش للا شيء.

بُعِثَ الرسول عليه الصلاة والسلام في تلـك الظـروف البائسة الصعبة، الهمجية والمعكوسة لحد كبير، بُعِثَ عليـه

الصلاة والسلام ليخرج الناس من ظلمـات الظـلام والجهـل والبهتان إلى نور الحق وعفـو الحنـان ورحمـة المنـان؛ ولأن الإسلام هو خاتم الديانات، ومنتهى الرسالات، ولا بـد أن يصلح لكل زمان ومكان، مـن بعثتـهﷺ وحتـى نلقـى الرحمن، فقد أنزل المولى عزَ وجل شـريعة سـمحاء، أراد من خلالها أن يرفع الظلم عن هذه الفئة الضعيفة المضطهدة، وأن يعيد إليها حقوقها المسلوبة، بل ويحول تلك الفئة بطرق عديدة إلى فئة الأحرار.

وهنا يحضرني سؤال جميل، تردَد من كثيرين ممن كتبوا عن الرقيق، والسؤال هو: طالما أن الإسلام مختـار غيـر مجبر، مقبل غير مدبر، يشجع على تحرير الرَقيق بصورته القديمة، وبطرق عديدة، فلـم لـم يخطـو خطـوة نهائيـة، ويستأصل الاسترقاق من جذوره، ويحرم الرق نهائيا وبـأمر شرعي؟!

وأقول- وا أعلم- إن الرق بنظامه القديم كان فيه كثير من الظلم والبهتان والفهـم الخـاطئ للـرق والمسـترقين، والمعاملة اللاإنسانية البحتة لهم بدون أدنى مشـاعر للحـب والرَحمة والتعقل والاحترام، كما أنـه كـان هنـاك خلـط

في الأمور، وخلل في الميزان والمعيار الصحيح لتصنيف البشر؛ لذا فقد حارب الإسلام نظام الرق ولكن لحكمة الله العظيم ولشمولية وواقعية هذا الدين، ولكونه دينًا صالحا لكل زمان ومكان فلم يحرم المولى عزَّ وجل نظام الرق ولا نظام الإماء، بل إن الله عزَّ وجل عندما حرَّم النساء على رسوله الكريم أباح إليه فقط ملك اليمين قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم ﴿**لاَ يَحِلُّ لَكَ النساء مِن بعد ولاَ أَن تَبدلَ بِهِن مِن أَزواجٍ ولَو أَعجبكَ حسنُهن إِلا ما ملَكَتْ يمِينُك**﴾ وكأن الله عزَّ وجل أراد أن ينبهنا إلى أنه سيأتي على العالم زمان يسود فيه فكر العبيد ويضمحل فيه فكر الأحرار بل سيتحوَّل العالم أجمع إلى شعوب مستعبدة وحكومات صفاتها هي صفات العبيد؛ ولأن الكمال لله فلن تكتمل فئة على حساب أخرى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فتلك الأيام نداولها بين الناس؛ ولأن الإسلام قد نزل لجميع البشر حرهم وعبدهم، ولجميع العصور والأزمان عصور العبيد وعصور الأحرار، فقد أنزل الله عزَّ وجل تشريعا للأحرار وتشريعا آخر للعبيد، بل إن الإسلام ربما اهتمَّ بأمر العبيد قبل الأحرار سوى القليل، ونسبح الآن سويا في جزء صغير من محيط

نشأته عليه الصلاة والسلام، وعلاقة تلك النشـأة المباركـة بموضوعنا "حضارة العبيد" مستعينًا في هذا الجزء با عـزَ وجل ثم بالكتاب الرَقيق "محمد محرر العبيد" عليـه الصـلاة والسلام لكاتبنا الحر الأستاذ/ محمد شوكت التوني جـزاه ا خير الجزاء.

الرقيق ونشأة الحبيب عليه الصلاة والسلام: -

منذ ولادة رسولنا الكريم وسيد ولد آدم أجمعين والمبعوث رحمة للعالمين، من رفض الملك وفضل أن يكون مسـكينًا، صدق من سماه الرءوف الرحيم، عليـه الصـلاة والسـلام وعلى آله وصحبه وزوجاتـه أمهـات المـؤمنين وذريتـه وآل بيته أجمعين، منذ ولادته عليه الصلاة والسلام، وكـأن ا عز وجل أراد أن يرفع به الظلم ويشرف به هـذه الفئـة المستضعفة البائسة "فئة العبيد"، وكما أوضحت سـابقًا فقـد كانت الأوضاع في هذه الآونة مقلوبة؛ فكثيـر مـن العبيـد في حقيقتهم أحرار أطهار بينما كثير ممن يدَعـون الحريـة والسادة هم في الحقيقة عبيد استعبدتهم شـهواتهم ونـزواتهم المستمرة، بل وشاءت إرادة الخالق عزَ وجل أن تكـون أول قطرات لبن تنزل بالفم الطاهر لرسول الإنسانية هي من ثدي

الأمة ثويبة، أمة عمه أبي لهب، وأن تقـف علـى تربيتـه عليه الصلاة والسلام مع أمه أمته بالوراثة عن أبيه بركة.

كانت ثويبة أمة ملك أبي لهب بن عبد المطلب عم محمـد عليه الصلاة والسلام وزوجه أم جميل، ولم يكن مـن قبيـل المصادفة أن الرسول ﷺ عندما ولدته أمه آمنة بنـت وهـب لم يقدم إلى فمه الطاهر المطهر إلا ثدي ثويبة.

نعم لم يكن من قبيل المصادفة؟

أو إلا فأين قريباته من بني هاشم؟

وأين العقائل الكريمات من قريش؟

بل أين ثدي أمه آمنة؟

ولم كانت ثويبة في بيت عبد ا بن عبد المطلـب حـين بزغ نور الهدى وهبط محمد إلى الكون مضيئًا وضاء؟

إذن فقد كانت الحكمة الإلهية تقتضي بـأن ترضـع أمـة محمدا حتى يحفظ لها الود، ويختزن لها فـي قلبـه الكـريم الوفاء، فيسأل بعد حين من أرضعتني فيقولون إنهـا ثويبـة عبدة عمك أبي لهب.

ومن مِن الناس من لم يسأل عن مرضعته الأولى؟

ومن مِن الخلق لم يحفظ لها ذمة ووفاء؟

فكيف بسيد الناس، وإمام الأوفياء؟ عليه الصلاة والسلام

إن المرضعة في الإسلام - والإسلام وحده - "أم" تحـرم حرمة الأم ولها حقوق الأم، بنتها أخت في الرضـاعة لمـن أرضـعت، وحرمـا لا تحـل لـه فـي زواج، وابنهـا أخ في الرضاعة له حقوق الأخ في المواساة والحب، وابنته حرم لا تحل أيضا في زواج.

والمرضعة في علم النفس الحديث وعلم التربيـة تمثـل الحب والحنان لا في لبنها؛ فاللبن غذاء لا قيمة لـه، ولكـن في ضمة الحضن؛ فإن هذه الضمة الدافئة الحنون الـرَقيقـة تمثل أول عطف وحب للطفل، والحـب للطفـل كـالهواء، والعطف كالطعام والماء، عليهما يتوقـف نمـوه الوجـداني والعقلي والنفسي إلى حد كبير، والطفل يسأل دائما من ضمه الضمة الأولى والضمات الأخرى في زمن الرضاع.

ولذلك فإن علماء النفس والتربية ينصحون الأمهات اللاتي يرضعن أبناءهن رضاعة صناعية أن يقمن بضـم الأطفـال في أحضانهن وإرضاعهن الرضاع الصناعي؛ لأن المهم هو الاحتضان وليس المهم اللبن طبيعيا كان أم صناعيا.

ولقد أراد ا   أيضا أن يعود محمـد بعـد أعـوام ثلاثـة من الطائف من حضن مرضعته الحبيبة الكريمة السيدة حليمة السعدية لكي يجد في انتظاره- وقد وعى وأدرك- مرضعته القديمة ثويبة وعبدته ملك أبيه وميراثه عنه "بركة" أم أيمـن، وقد لازمتاه طوال مدة إقامته بمكة ملازمـة جعلتـه حبيبـا إليهما، وجعلتهما يمثلان له حبـا كريمـا يبـذل بإسـراف وإخلاص، وبلا عوض أو ثمن.

وشهد محمد من مظاهر الحب المتقد في قلب ثويبة صورا في هروبها من بيت سيدها وركوضها إلى بيت آمنـة لكـي تبقى بجوار محمد الصبي الجميل، كما رأى في قدوم سيدها وسيدتها في طلبها وما كان ينزل بها من عذاب جزاء سـيئًا على شغفها به ورغبتها في البقاء معه.

كما شهد منظرا لعله لم ينسه في حياته حين أرادت ثويبة الهروب معه إلى الطائف لكي تلازم جـواره وتصـبح ظـلاً له، وقد تعقبها أبو لهب بتحريض زوجه أم جميل، فلما ظهر بها في ركب الحارث بن ذؤابـة وحليمـة السـعدية انهـال عليها ضربا وتأديبا وتعذيبا.

ولقد رأى الراحلون حين لفتوا إلى مـا وراءهـم ثويبـة المتخفية، وأدرك الحارث وزوجته أنها قـد آثـرت اللحـاق بمحمد، فروعا وتوقفا وأقبلت هـي علـى محمـد فـارتمى على صدرها وضمته هي إلى هذا الصدر العف الحر، وكأنما قد ضمت الدُنيا بزخرفها وجاهها. وكأنها هي تقول لنفسها: - "هين ما ألاقي في سبيل بقائي معك يا محمد ولو كان أقسـى من المنون".

وقف الركب في انتظار القدر الطارق، وهم لا يعرفـون من هذا القدر الطارق إلا ثويبة، فقد أدركت أنه أبـو لهـب، وترقبت ما تلاقيه من أبي لهب.

وكان هو أبو لهب؛ فما إن وصل حتى كانـت العبـارات تهدر من فمه كشلال من مياه هادر، وترجل ثم أخرج سوطًا من تحت ثيابه وأمسك بثويبة فإذا بمحمد في حضنها مرتاعا، وقد فزع حتى اصفر وجهه، ولم يرحم أبو لهب فـزع هـذا الطفل فشدَ إليه ثويبة شدَة مزقـت ثوبهـا وألقـت بمحمـد على الأرض، ثم انهال عليها بسوطه بعنف وغيظ؛ فتمزَقـت بقية ثوبها وتمزَق جسدها وتفصد بالدم.

وأناخ الحارث راحلته، وأناخ راحلة حليمـة؛ فأسـرعت حليمة إلى محمد تهدئ من روعه وتحميه من قسوة الرؤية.

وتعرَّض الحارث لأبي لهب، ولكنه أفلت مـن ضـربات السوط فصاح فيه "حذار يا أبا لهب فإنني ما زلت في حمـى قريش" وهبط الفرسان يقفون بين الحارث وبين أبـي لهـب الذي أمسك عن الضرب، ثم جرَّ ثويبة وربطها بالسوط.

وفي صمت عاد بها يجرُّها في ذيل فرسه.

وفي صمت سار الحارث وحليمة ومحمد وقـد تفجعـوا وحليمة تهمس كأنها تعزي محمدا.

إنها عبدته يفعل بها ما يشاء، وليرحمهـا ا "، ومحمـد يحاول أن يفهم شيئًا من معنى العبودية، ومـا سـبب هـذه القسوة، ولكنه لا يملك لها فهما ويظل صامتًا، ساهما ينظـر بعينين فيهما الخوف يتجلى، وفيهما الفزع، وفيهما الحيـرة، وحليمة تراقبه وتدرك ما يعتمل في نفسـه، ولكنهـا تكتفـي بضمه إلى صدرها وتمريـر يـدها علـى شـعره مـرة، وعلى وجهه مرة أخرى، تمسح دموعه وتزيـل مـا علـق بوجهه من رمل وتراب!.

وهدأ روع محمد، فدنت من عينيـه دمعتـان، همـا أول دمعتين تقطران من أكرم عينين، رحمة بالإنسانية، وشـعورا بآلام الغير، وأسى على ظلم أوقعه ظالم ببـريء ضـعيف، وسأل حليمة:

- "أماه، لماذا ضرب هذا الرجل ثويبة؟".
- "لقد كانت تريد أن تجيء معك ولكنه أعادها".
- "ولماذا أعادها؟.
- "لأنها عبدته".
- "وما معنى عبدته؟".
- "إنها ملكه اشتراها بماله".
- "هل يُشترى الإنسان كالحيوان؟"
- "نعم يا ولدي".

تطلع محمد إلى الأفق البعيد.

وكأنه يقرأ سطورا مكتوبة على صفحة الأفق.

ولم تكن تقرؤها حليمة.

لأنها مكتوبة لكي يقرأها محمد فقط.

ولم يكن يستطيع النطق بها.

لأنه لم يكن مؤهلاً بعد لكي يسمعها للناس.

وابتسم محمد بعد تقطيب، وبان على وجهه الابتهاج بعـد إجفال وفزع وتعجبت حليمة، ولم تكن تدري!

لم تكن تدري ما الذي بعث البهجة إلى نفس محمد، ورسم على وجهه أمارات المسرة والغبطة؛ إنـه مسـتقبل للعبيـد والأحرار، مستقبل النور والحرية، مستقبل السلام والمساواة والعدل.

وظل محمد يفكر في ثويبة وأم أيمن تفكيرا متواصلاً حتى بلغ الخامسة فأُعِيد إلى مدينته - مكة - وإلى بيته وإلى أمـه وإلى جده، فما لبث أياما حتى رغـب إلـى عبـد المطلـب في أن يشتري له ثويبة من عمه ويشـتري بـذلك راحتهـا من العذاب، وهناءتها من الشقاء، وفك رقبتها مـن الأسـر وإن كان إلى هذا الوقت لم يكن قد كُـرم بنـزول الـوحي ولا وصول الإذن له بالدعوة إلى فك الرقاب.

وقال محمد:

- "ليتك يا ثويبة!".

إنني جاريتك يا سيدي، وعندما تكبر ويكون عندك مـال تشتريني من سيدي أبي لهب، "وإنني لأعـيش علـى هـذا الأمل".

وصاح محمد في عزم:

- "بل إنني مشتريك من غدي.. وليأخـذ عمـي داري وأغنـامي وآخـذك أنـت، وسـأطلب منـه ذلـك في الصباح".

- وكانوا قد اقتربوا من بيت أبي لهب؛ فارتجفت قلوب الثلاثة دون أن ينبسوا أو يتحدثوا.

وإذا بسعال يشق الصمت والظلام، وإذا بهم يعرفون أنـه أبو لهب ويكاد الثلاثة يخرون من الخوف والفزع.

وصاح أبو لهب: -

- "أهذا أنت أيتها الفاجرة؟"

- ولزمت ثويبة الصمت، وردَ محمد بصوته الهادئ:

- "طب مساء يا عمي".

ولم يرد أبو لهب على محمد التحية وتابع صياحه:

- "أين كنت يا لكعاء طول النهار والليل؟".

وردت ثويبة متلعثمة:

- "كنت مع سيدي محمد".

- "وهل محمد في حاجة إلـى مـن يحملـه ويطعمـه ويسقيه؟ لقد كبر وأصبح رجلاً يقوم علـى شـئونه، وهذه جاريته معه. إنك عبدة فاجرة آبقة، ولأقسـمنَ بهبل لأسيطنك فأمزق جسدك".

وقام وفي يده السوط؛ فتعرَض له محمد ورفع يديه مجيرا ثويبة.

- "أخلْ يا ولدي ما بيني وبين هذه الجارية".

ورد محمد وهو مختنق بالدموع:

- أنا مجيرها يا عمي".

وضعف أبو لهب على صوت محمد، وهـمَ أن يتركهـا استجابة لمحمد.

ولكن صوتًا كالرعد القاصف هدر من وراء الدار:

- "أدبها وإلا فدع لي أمرها.. فإنـك ذو قلـب رحـيم بالإماء والصبيان".

وبرزت أم جميل فجذبت ثويبة من شعرها جذبـة كـادت تحطم بها باب الدار ولم يستطع محمد إمساكها.

- "أنقذها يا عمي من أجلي، إنني أشتريها منـك، خـذ داري وخذ أغنامي وأعطني ثويبة".

وصمت العمُ حائرا بين شر نفسه، وقسوة زوجته، وبـين هذا النداء الملائكي الذي يذيب الصخر، ونادى زوجته:

- "دعيها يا أم جميل".

وكانت ثويبة تصرخ ومحمد يتمزَق حسرة حين يسمعها:

- لا تتركني يا سيدي محمد، إنها تقتلني".

ورق العم الغليظ القلب لمنظر ابن أخيـه، وهـو يتفجـع صامتًا متماسكًا فأمسك بـذراعي زوجـه وخلـص ثويبـة من براثنها وخرج بها إلى محمد وقال له:

- خذها فهي لك الليلة فقط، حتـى تطمـئن عليهـا.. ولكنني لا أبيعها؛ فزوجي لا ترضـى بهـا بـديلاً عشرات الإماء".

وفرح محمد وأخذ ثويبة من يدها وضـمها إليـه وسـار يقول:

- "شكرا يا عمي".

وظلت أم جميل تعير زوجها بضعفه أمام محمـد؛ لأنـه لا ولد له. وتصرخ فيه وتأمره أن يحضـر لهـا جاريتهـا، وأبو لهب صامت لا يدري من حيرته أمرا يدبره.

ودخل محمد على جده وهو يحاول أن يخفي ما تجد نفسه، ولكن جده عرف بذكائه وخبرته أن أمرا قد سـاءه، فسـأل أم أيمن وهو يعرف أن حفيده صابر دائما، متجلـد، كتـوم فقصت عليه أم أيمن أخبار الليلة؛ فضحك عبد المطلب لكـي يسري عن محمد، ويبعث في نفسه الرجاء.

- "أما ضيفك فسيظل ضيفي وضيفك ما شاء من وقت، أما ثويبة فمن غد ستكون لك.. نـم قريـر العـين فقد قرّت بمروءتك عيون.. هذا الضيف يذوق طعـم الراحة والنوم والشبع والري من صـنيعك، وهـذه ثويبة قد حسرت عنها أذى المرأة الشريرة.. والآلهة تباركك.. وتحرسك.. وسُري عن محمد حين ذكـره جده بما صنع للضيف وما صنع لثويبـة، وعـاوده

السرور حين أبصر ثويبة بجـواره.. وفـي أمـن.. وملأ نفسه الرجاء أنها ستكون من غد له وقد وعـد عبد المطلب.. وحين يعد عبد المطلـب فقـد أُنجِـز ما وعد.

وظل محمد يرعى ثويبة...

وظلت ثويبة على حب محمد والتضحية من أجله زمنًـا.. زمنًا طويلاً حتى تزوَج من السيدة خديجة ولم ينسـه أبنـاؤه منها وانتقاله من حال إلى حـال وفـاءه لثويبـة فكـان أول ما طلب من السيدة خديجة - مستعينًا بمكانتها فـي قومهـا وبمالها الوفير - أن تشتري ثويبة - وسعت السيدة خديجـة سعيها الحميد إلى ذلك فلم توفـق وأعـادت السـعي وزادت في الثمن ولكن أم جميل سدرت في عنادها ولم تلن من قناتها رغبة محمد ولا تضحية خديجة، ولا مناداة الأهل إياها بمنح ثويبة لمحمد. ولما خاب سعي محمد وخديجة على هذا النحو بلغ منهما اليأس مبلغًا، فخففا عن ثويبة أرزاء الرق بوصلها وإكرامها فكان لها منهما المأكل والملبس والمال كرما موفيا بها على العيش الرغيد، ثم الود والعطـف والحنـان ودوام السؤال عنها.

وقبل هجرة الرسول إلى المدينة بسنوات ثلاث وقبل وفاة السيدة خديجة وبعد أن أصهر محمد لأبـي لهـب وزوجـه بتزويج بنته من ابن عمه أبي لهب رضي أبو لهب أن يبيعها إلى السيدة خديجة فاشترتها منه ثم أعتقتها إرضاء لزوجهـا العظيم محمد عليه الصلاة والسلام.

وفرح محمد عليه الصلاة والسلام بهذا فرحا عظيما وظل يصلها ويصل ابنها مسروح حتى هاجر إلى المدينة وخلفهـا في مكة ولكنها كانت في قلبه فكأنه قد أخذها معه وأخذ حبـه إياها، فلم يزل يبعث إليها بالصلة والكسوة وهو في المدينـة سبع سنوات إلى أن عاد من خيبر فسأل عنها من كان يبعث بالصلة إليها معه فأنبأه بأنها توفيت فحزن من أجلهـا حزنًـا شديدا وسأل عن ابنها مسروح يريد أن يصله وأن يمدَ حبـه لثويبة على مسروح ولكنه علم أنه مات أيضا.

فسأل عمن بقي من قرابتها حتى يواصل حبه لهم.

ولكن قيل له إنه لم يعد لها من أقرباء، فترحم لها وسـأل ا لها حسن الجزاء.

أما بركة وهي العبدة التي ورثها محمد عن أبيه عبـد ا في ميراثه القليل، وهي التي احتضنته بعد ولادتـه وظلـت

تحتضنه أياما سبعة، وهي التي خرجت - مع ثويبة - تبحث له عن مرضعة وهي التي اختارت له حليمة، ثم فارقته عند مغادرته مكة دامعة العين كسيرة القلب وظلت عامين ترعى آمنة وتعزيها عن فراق ولدها وهي تحترق معها في شـواظ من الشوق والحنين إليه، ولـم تسـتطع أن تقـاوم رغبتهـا في رؤيته؛ فاقترحت على آمنة أن تـذهب علـى الطـائف لمشاهدته، وكانت الهواجس قد لعبـت بـالقلبين الكـريمين، وكادت الأوهام تجسد لآمنة أن ابنها قـد أُصـيب أو مـات، وشدّت بركة رحلها إلى الطائف ورأت محمدا وهـو طفـل جميل مكتمل الصحة موفور العافية يمشي ويـتكلم وعاشـت معه أياما تنعم بقربه وتطفئ أشواقها بحضنه حتى إذا ما حان الرحيل بكاها؛ إذ كان قد تعلق بها وتنسم منها نسائم الأحبـاء البعيدين المفارقين، وبكت لفراقه بكاء كاد يقعدها عن الرحيل لولا الولاء منها للأم المترقبة عودتهـا المنتظـرة الأنبـاء من فمها الصادق عن ابنها الحبيب حتـى إذا مـا تـراءى لها الواجب، واجب العودة إلى الأم المضطربة كي تطمئنهـا قست على نفسها وضـغطت علـى عاطفتهـا، واعتزمـت الرحيل.

وكان وداعا كريما جميلاً اشترك فيه بنو سعد جميعا، وخرج مع الرسولين فرسان يحرسون الركب حتى منعطف الطريق، ولولا ممانعة جابر لاستمرَّ الفرسان يحرسونهما حتى يصلا إلى مكة، وكان حال أم أيمن في الرجوع غير حالها في القدوم؛ فقد كانت في الأولى فرحة باللقاء المنتظر، وكانت في الأخرى في عاطفة هي مزيج من الحسرة على الفراق والسعادة بما رأت عليه محمد من حال.

كانت فرحة لأنها سعدت برؤية محمد واغترفت عيناها من نور محياه، وكانت سعيدة لأنها رأته في خير حال، وألقت إليه النظر والسمع والبصيرة فإذا هو صحيح معافى، يفيض صحة عافية، وإذا هو محوط بالرعاية التي فاقت رعاية الوالدين، والعناية التي لا تدانيها عناية المحبين، ترفعه أيد رحيمة، وترقده في فراشه أذرع شغوف، وتناغيه نفوس حانية، وتكلؤه عيون محبة، وتسعده قلوب مُلِئَت بالعطف والود والرحمة والحنان، لقد رأت وأحست أن ذلك اليتيم قد تبناه أم وأب كريمان، وشاركت في تبنيه قبيلة بأكملها فلم يعد يحسُّ يتما، ولم يعد يفتقد حنانًا ولا رحمة، ورأت ذلك الفقير وقد أسعدت بركته البيت الذي هو فيه،

فأسعده أهل البيت وأغدقوا عليه الطعام واللباس ولم يبخلـوا عليه بما يضفيه الأغنياء على أولادهم.

لقد تبدد خيالها الذي كان قد سيطر عليها، والـذي كـان يعذبها ويعذب أهله، وها هي ذي الآن في طريقها إلى أهلـه تقصُ عليهم أجمل القصص فكيف تروي الخبر؟ وكيف تنظم العبارات؟ وكيف تتخير الألفاظ؟ وكيف تنسق الحكاية؟ وكيف تملؤها بعنصر التشويق؟ وكيف تضفي عليها جمال الحقيقة؟ إنها تفكر وتتخيل، وتدبر وتنسق، ولكن الأمر يفلـت حينـًـا من زمام إرادتها ويتفوق عليها، فتصدم لإحساس الألم بفراقه بعد لقائه.. فتبكي. وتتساءل ما ضرَها لو بقيت معه يوما آخر أو أسبوعا أو شهرا؟! وماذا عليها لو طال مكثهـا وبعثـت مع جابر برسالة..

وتلوم نفسها حينًا آخر على أنها تركته ورحلت، وأخلـت صدرها منه بعد أن متعت بضمه واحتوائه بـين ذراعيهـا، وظلت الأفكار تعذبها، والأحاسيس تؤلمها حينًا وتسليها حينًا، والعواطف تعذبها مرَة وتعصر قلبها مرارا، حتـى أشـرفت على مكة فجمعت أمرها وطردت من رأسها شياطين الخيال، ومهدت للملائكة أن تنسج لها الرؤى والأحاديـث، وهيـأت

نفسها لأداء الرسالة الكريمة رسـالة الصـدق والطمأنينـة ولم تنس أنها رسول وفي عنق الرسول أمانة وعلـى هـذه الأمانة تتوقف حياة آخرين أعزاء عليها كرام على نفسها.

وسرعان ما حطت رحالها على باب الدار الحزينة حتـى أفضت ببشائر رسالتهم بأن أطلقت تهلـيلاً مفرحـا مسـعدا وخرجت ثويبة فعانقتها وأطلت آمنة يـدفعها قلـب مكلـوم، وفؤاد جريح، وشوق والتياع، إلى معرفة الخبـر، وتقصـي النبأ، فصاحت فيها أم أيمن:

- أبشري مولاتي، أبشري فإنه بخير وعافية)

وعاد محمد إلى مكة ولازمته "بركـة" ملازمـة المحـب الفاني في حبه لا ملازمة العبدة لسيدها، ولم تكن في لحظـة من نهار أو لحظة من ليل تفارقه أو يبعد عن ناظريها.

وخيف على محمد من البقاء بمكة؛ فأودعـه أهلـه مـرة أخرى أمانة لدى الأمين الكريم الحارث بن ذؤابـة وزوجـه حليمة السعدية، ورحل الصغير الحبيب عن أمه وعن جـده وعن أم أيمن بركة فودعته بدموعها التي ظلت تمسحها بعيدة عن سيدتها حتى إذا ما كانت بمقربة منها تقوم على خـدمتها وحدها جففت دموعها واصطنعت الصبر دواء لها وحرصـا

على سيدتها أن تثير لواعجها دموع بركة. وطال الفراق هذه المرَّة ثلاث سنوات.

ما كان أقاسها على الأم. الأم. نعم الأم... وكفى!

وما كان أقساها على الحاضنة الحنون المحبة التي لم يكن لها ولد وكانت من سواء الخلقة أنثى تتدفق فـي شـرايينها الأمومة فصبتها سلاما وبردا على محمد.. وكان خليقًا بهـذه الأمومة وحنانها وحبها؛ فقد كان جميلاً وضاء رقيقًا هادئـًا. يوحي بالحب.

لعلنا - ونحن في غير حاجة إلى من يحدثنا مـن كتـاب السيرة - نتخيل ونحق كيف قضت هاتان السـيدتان الليـالي والأيام.. وهي طويلة.. وتطول كلما اتسع فراغهـا بغيـاب محمد وضاق رحابها عن احتمال الشوق والحنية إليه.

عودته إلى مكة

وعاد محمد إلى مكة ولقي جده وارتوى من حـب أمـه وتلقفته أحضان "ثويبة" وأم أيمـن. وإنـه لابـن الخامسـة وله نضوج من بلغ العاشرة جسما وعقلاً ووجـدانًا، وأخـذ محمد يقارض هؤلاء حبا بحب.

وبدأ محمد يصاحب إخوانًا وخلانًـا وإخوانًـا مـن ذوي قرابته ومن ذوي عشيرته.

ونعم محمد بالعيش الجديد.

وحاول في هذه الفترة أن ينال "ثويبة" وأبي عليـه عمـه بعنف آثار الحزن لأول مرة في حياته، واستشعر من ذلـك الحرمان، كما أدرك قسوة الرق على الآدمي.

ورأى محمد بمكة بشاعات من ظلم الرَّقيق.

وساءل نفسه كثيرا عن هذا الإنسان المخلوق كبقية الناس وله نفس الأعضاء، ويحسُّ نفس الإحساس، ويـدرك بـنفس العقل، ويتميز بالعمل والإنتاج ومع ذلك فليس لـه أي حـق

من حقوق الحياة.. سوى الطعام والشراب بمـا هـو أدنـى من طعام الحيوان وشرابه.

بل لعل محمدا قد عجب من هذا المجتمع الذي يضـرب العبد الإنسان ويعذبه ويقتله ويبيعه ويشتريه في حين أنه هو المجتمع الذي يعبد جمادا أصم لا يحس، ولا يعي، ولا يتكلم، ولا يعمل، قائما في مكانه لا يـريم ولا يتحـرك ولا يفيـد، ولا يضر، ومع ذلك فإن هذا المجتمع يبـذل لـه التقـديس والتكبير، ويسوق إليه الذبائح والنذور، ويخشـاه ويرتجـف خوفًا من غضبه! نعم إنه تناقض لا شك في أنه قد أثار تفكير محمد، وأنتج هذا التفكير سخطًا علـى الأصـنام واحتقـارا لشأنها ورحمة بالعبيد وإشفاقًا على حالهم وسعيا ذهبيا لتوفير حياة لهم خير من حياتهم. كانت "بركة" تقـوم علـى خدمـة محمد ومعاونة سيدتها في رعاية الصبي الجميـل والعنايـة بالدار المتواضعة لكي تحلو وتجلو وتجمل في عيني محمـد فلا يضيق بها، ولا يتبرم بالعيش في مكة، ولا يأخذ الحنـين بقلبه إلى بيت حليمة.

ولقد رأى محمد عجبـا فـي بيتـه، وفـي بيـت جـده عبد المطلب؛ لقد رأى سماحة آمنة في معاملة بركة، وكانت

سيدة في مقتبل العمل ولكنها كانت راجحـة العقـل سـليمة التفكير، قويمة التدبير، وكانت في فورة الشباب ولكنها كانت هادئة الأعصاب وادعة رفيقة كان لهـا صـبر الصـابرين الكرام.

وكان لها رقة الأنوثة العاقلة.

كان لها حلم يقل نظيره في مجتمع صاحب تأثر غضوب.

وكانت قد تأيمت في باكورة أيامهـا فجمعـت أحزانهـا وأشجانها وأحالتها حبا وعطفًا.

أحبت محمدا، وأحبت ثويبة، وأحبـت بركـة، وأحبـت عبد المطلب وأحبت النـاس مـن حواليهـا مـن قرابتهـا أو عشيرتها أو الأبعدين؛ ولذلك أحبها الناس جميعا.

وكانت شابة ناضجة الأنوثة مكتملة العواطـف فصـعدت رغباتها إلى حنان وحب وأمومة كاملة.

لم تتزوج بعد وفاة قرينها وهي في سن الصـبا البـاكر، وابنة المجد الأثيل، وأيم رجل عظيم وابـن رجـل عظـيم، وعلى فرط جمالها لم تتزوج؛ لأن ا كان قد أعـدها فقـط وعاء لمحمد صاحب الرسالة وخدمـة الخلـود، فلـم يكـن

لها رغم كل هذه المزايا أن يكون لها زوج آخر غير ابنهـا محمد لكي تفيض عليه كل حنانها.

ومع ذلك فقد أراد ا بقدره أن يحرمهـا منـه ويحرمـه منها بعد شهور قلائل من عودته إلى أحضانها.

فأحبت محمدا.

وأحبت في غيبة محمد "بركة" متمثلة فيها ابنهـا متخيلـة فيها بنتًا لم ترزق بها، والحب يستعوض بـه عـن الحـب وتصعد به الرغبات، وتستبدل به النزوات عند من سـويت فطرتهم واستقامت طباعهم.

ورأى محمد في بيت جده عجبا، بل أعجـب ممـا رأى في بيته ومن أمه؛ فإن أمه سيدة مهذبة يرتقب منهـا حسـن المعاملة ورقيق الأدب، ولكن عبد المطلب شيخ بني هاشـم وسيد قريش وكبير مكة والرجل المرهـوب بـين العـرب أجمعين.

هذا المارد العظيم الذي يهابه الخلق من مقـيم ونـازح، وحال ومرتحل ووافد وحجيج، هذا العملاق الـذي تنحنـي له الهامات، وتخشع عند ذكره القلوب وتُقضى له الحاجـات، ويفصل حكمه بين حق وحق، ويُسمعُ له الرأي فلا تعقيب.

هذا الرجل ماله يرق لعبيده ويحسن لهم المعاملة ويكـرم مثواهم، ولا تُرفَعُ له يد بسوط ينزل به على أجسادهم وهـو القادر على ذلك بل أقدر من القادرين وأقوى من الأقوياء؟.

إنه إذن الخلق لا القانون!.

خلق الذين يملكون الرَقيق، فمنهم لطيف المعاملة، ومـنهم خشن، ومنهم رقيق القلب، ومنهم ذو غلظة، ومنهم رحـيم، ومنهم قاس، وليس هو القانون الذي أوجد الرق وسلط السادة على العبيد، وأباح لهم من تعذيبهم والـتحكم فـي أمـورهم والقسوة عليهم ما لم يبح لهم في الحيوان والجماد.

وتأسى محمد في إحسانه على العبيد بجده عبـد المطلـب وبأمه آمنة، وأدرك أن العيب في الناس فحفظ الدرس ووعاه، ورعاه في قلبه ونفسه وأعماقه ذمة وعهدا.

وانقضت سنة على وجود محمد في مكة، وكـان يسـمع عن أبيه وعن أخوال أبيه بني النجار، وأن قبره في ديـارهم واشتاق إلى أن يزور قبر أبيه، وأراد جدُه أن يُعرف محمـدا أخواله، وأن يزور قبر أبيه، وأن تزور الأيم الحزينة زوجها وأقعدت الشيخوخة وكبر السن بعبد المطلب عـن الرحيـل معهم فزوَدهم ورحل الثلاثة: آمنة، ومحمـد، وبركـة. دون

رجال من أبناء. وكأنما آمن عبد المطلب بالأمان في وجـود بركة مع العزيزين الغاليين، وإن كان قد آمن في قرارة نفسه بأن عناية خفية ترعى محمدا وتظله بالأمان.

وكانت بركة رفيقة السفر، وكانت الخادمة الأمينة طـوال الرحلة، وما أدراكم ما الرحلة - وعلى رواحـل - مسـافة ما بين مكة ويثرب في صحراء جرداء، وفـي ليـل مظلـم وفي نهار قائظ، وفي خوف من سطو الصعاليك واللصوص.

إنها رحلة شاقة على الرجال، فما بالكم بامرأة واحدة تقوم على خدمة سيديها وإطعامهما وسقيهما ثـم إعـداد الفـراش لهما عند النوم، كما تقوم على إناخة الـراحلات وإطعامهـا وسقيها ورفع الأحمال عنها عند الإناخة، ثم وضعها عليهـا عند القيام.

ولقد قامت "بركة" بكل هذا تعاونها سيدتها اللطيفة الرفيقة، وتعاونها اليدان الصغيرتان الرقيقتان؛ يدا محمد ﷺ، وقوبـل الراحلون من بني النجار بخير لقاء وأكرم وفادة واستضافة، وافتن أصحاب الديار الكرام بإكرام ابن أخيهم، وأمه وأمتـه ما وسعهم الجهد، وكان جهدهم واسـعا، وثـراؤهم عظيمـا ونفوسهم أعظم وقلوبهم أوسع، ووقف محمد وأمه على قبـر

عبد الله وامتزجت دموعهما بدموع بركة التي كانـت تبكـي سيدا عرفته جميلاً كريما أحسن لها المعاملـة والمعاشـرة، ثم جاء أوان الرحيل فودعوا أحسن وداع، وحُملوا الهـدايا، وشُيعوا كراما من كرام.

وأخذت القافلة الفرحانة الميمونة تغذ السير فـي العـودة إلى الوطن العزيز مستبشرة سعيدة بما لقيـت ومـن لقيـت مغتبطة بمن سترى في مكة من الأحباء.

وفجأة نزل قدر الله، وتنزَلت مع القـدر حكمـة المـولى العزيز؛ فأحست آمنة بدنو الأجل وهي أكمل ما تكون صحة وأوفر ما تكون عافية، وفي هذا الموقف قلـت فـي كتـابي "محمد في طفولته وصباه":

"وكانت آمنة قد جلست كمن يرتمي على الأرض ولم تمد يدا للمعاونة، وبدا محمد متجهما شارد اللب، وسألته أم أيمن عما به فردَ قائلاً: -

- "إنني منقبض يا بركة....!"

وتضاحكت أم أيمن لتسري عنه.

وما إن اكتملت الخيمة قياما حتى بدأ وجـه آمنـة يربـد ويصفر لونه، وأخذت أطرافها تبرد وهي تتمتم:

- "محمد.... محمدا!".

واقتربت أم أيمن تسندها وهي تصرخ، وجـرى محمـد إلى أمه واحتضنها ملتصقًا بها وهو يصيح:

- "أمي... أمي...".

وعجز محمد، وعجزت بركة، وأخذت الحيـاة تتسـرب من جسد آمنة وهي أكمل ما تكون عافية وأقوى مـا تكـون شبابا، وأنضر ما تكون وجها وجمالاً.

عجـز الاثنـان المنفـردان عـن المعاونـة، وعجـزا عن المنطق، وتكلم الدّمع وهو حيلة الضعيف اليائس.

وانفردت الصحراء بهؤلاء الثلاثة؛ فألقت عليهم الخـوف والوحشة، ورمتهم بالفزع والجزع.

وراشت إليهم سهما قاتلاً يصيب آمنة فتنزف معه دمـاء محمد ويتمزّق به قلب بركة.

واعتدلت آمنة قليلاً وأدنـت محمـدا منهـا، وأشـارت إلى "بركة" أن تقترب وقالت في همس:

- "إنني أموت... وإنني لأترك محمـدا وديعـة عنـدك يا بركة، لقد كنت له من قبل أما فأصبحت له الأم الوحيدة".

وبكى المفجوعان، ومسحت آمنة بخدها الدموع الجاريـة على خد محمد وهمست في أذنه:

- "تشجع وكن صابرا. وعش رجلاً.. وكن دائما فاضلاً نقيـا طـاهرا" إن ا قـد اصـطفاك، وفضـلك على العالمين.. لا لا تخف ولا تجزع فكـل النـاس إلى هذا المصير" وابتسمت وأضاء وجهها بنور لامع وبرقت عيناها.. واستغرقت في نوم عميق، ووقفـت أنفاسها وتنصلت منها الحياة، وذهبت إلـى بارئهـا تاركة هذا اليتيم، يخرج من يتم إلى يتم، كأنما يتمرَغ على بساط من يتم كلما انتهـى امتـدت أطرافـه"، وتفجعت بركة وصرخت، ورددت الصحراء الواسعة صرخاتها، وعاد الصـدى يحمـل لهـا اليـأس... ثم الصمت الرهيب.

واحتضن محمد أمه، وكأنه يتشـبث بحبهـا، ويسـتبقي حنانها، ويشدُ على قلبها أن يبقى بجانب قلبـه، وأن يسـتمرَ في خفقانه ويناشدها ألا تتركه وحيدا غريبـا يتيمـا، وكأنـه

يناجيها: أما كفاني ما لقيت من ذلك اليـتم مـن أبـي؟ وذل الوقوف على تراب قبره الصامت؟ أمـا كفـاني مـا لقيـت من بعاد وغربة لم أمتع فيهما بحبك وحنانك؟ أهكذا تـرحلين وشيكًا قبل أن أشبع من حبك الكبير وعطفك العظيم؟

ولمن تركتني؟ ألهذه الجارية الفقيرة الضعيفة؟

أم لهذه الصحراء المخلوقة الواسعة التي تستطيع أن تأكل الآلاف من أمثالي؟

أم لهذا المجتمع الضال الذي لا يرحم فقيـرا ولا يغفـر ليتيم؟

أم لهذه الحياة التي لا تعرف إلا منطق القوة والثروة..؟

ما حيلتي؟

ما قدرتي؟

ما هو مصيري؟

بعد اليتم

وألقى محمد بكيانـه ووجدانـه فـي أحضـان "بركـة"؛ وأصبحت له الأم والأخت والحبيبة والحامية والحاضنة..

لقد كان له حقيقة جدُّه بعد المطلب، وكـان يحبـه فـوق ما يسع قلب من حب، وكان يغدق عليه العطـف مضـاعفًا؛ فهو عطف الجد على حفيده، والأب على ابنه والرجل الكريم على اليتيم الصغير الذي فقد والديه ولم يعد له من الحـانين أحد إلا هذا الشيخ.

وكان هذا الشيخ قد علت به السن وقارب المائة، وتراخت قواه ووهنت عظامه، وكل بصره وأصبح هـو فـي حاجـة إلى من يقوم على شئونه.

فكان كل ما يبذله لمحمد القول الجميل يملـؤه بـالعطف والحب والحنان..

أما بركة فكانت تقوم على كل أموره وتجهـد أن تجعـل عيشه هانئًا رغيدا، وأن تسلي وقته وفراغه، وتقـصّ عليـه أحسن القصص وتحدثه عن آبائه وأمجادهم وتصور له الخلق الكريم القويم.

وكان محمد يأنس لها ويرتاح إلـى عشـرتها ويسـتريح إلى خدمتها.

وأدرك عبد المطلب ذلك فكان يسأل بركة دائمـا العنايـة بمحمد.

ويروي ابن سعد صاحب الطبقات عن سليمان بن سـليم عن نافع ابن جبير أنه عندما قدم قوم من بني مدلجة وزاروا عبد المطلب ورأوا قدم محمد وكانوا قوم استكشـاف وتنبـؤ سألوه أن يعني بمحمد ويحفظه.

فقال عبد المطلب لأم أيمن - وكانت تحضن رسول ا ﷺ

- "يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريبـا من السدرة وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هـذه الأمة".

ولا شك أن عبد المطلب - وقد قدر عظمة محمد في مقبل أيامه وأدرك وجـوب المحافظـة عليـه وإحاطتـه بسـياج من الأمن والأمان - لم يكن يعوزه الرجال الأشـداء للقيـام بهذه المهمة الهامة ولكنه وجد في بركـة إخلاصـا وتفانيـا ورغبة في الفداء جعلته يكل إليها هذا الأمر الخطير ويأتمنها على أغلى الأمانات، وظلت بركة على عهدها حتـى مـات

عبد المطلب، وسُئِلَ رسول ا ﷺ وقد جاءته الرسالة وأصبح نبي هذه الأمة "أتذكر موت عبد المطلب" قال "نعم أنا يومئـذ ابن ثماني سنين".

وقالت أم أيمن "رأيت رسول ا ﷺ يومئذ يبكـي خلـف سرير عبد المطلب".

وانفرد محمد وبركة بعد موت عبد المطلب وجمعهما بيت لم يكن يضمُ عندئذ إلا الذكريات المؤلمة وخيالات الأحبـاء المفارقين وإن كانت هذه الدار هي في كل زمان مبعث النور على العالمين، ومنار الهدى ومشعل الحرية والحق والجمـال والكمال إلى أبد الآبدين.

ثم انتقل محمد ومعه بركة إلى بيت أبي طالب، ومـرَت الأيام تنشئ محمدا الإنسان، ويد ا تبني محمدا النبي الهادي النذير البشير.

وكانت رحلته إلى الشام مع عمه أبي طالب، وكانت غيبته التي شقت مرارة بركة، ثـم كانـت عودتـه التـي ألقـت على عينيها النور والأمل وملأت قلبها بالمسـرة والسـعادة، ولعله في هذه الرحلة قد رأى ما يصنع أهل الشام والرومان والروم بالعبيد مما يحكي عنه التاريخ أفظع القصص.

وبالرغم من أن فاطمة زوج أبي طالب كانت مـن كبـر القلب وعظم الحنان على محمد ما جعلها في مقام الأم لـه، وكانت تزيده حنانًا عن أولادها.

وبالرغم من أن أبي طالب كان لمحمد أبا وعليه حانيـا، يسهر على راحته، ويعمل على إرضائه في طفولته وصـباه وشبابه، ثم وقف له دون المشركين يدفع عنه الأذى ويجيـره ويهدد بالموت من يأتمر به، إن التاريخ لا ينسى لأبي طالب وقفته يوم ائتمرت قريش بمحمد ونـووا قتلـه وكـان رأس المتآمرين عقبة بن أبي معيط، وعلم أبو طالب بالأمر فجمـع فتيانًا من بني هاشم وبني عبد المطلب وأمرهم أن يأخذ كـل واحد منه حديدة صارمة، وأخذ محمـدا فـي صـباح يـوم إلى أندية قريش ووقف عليه وحولـه الفتيـان الهاشـميون والمطلبيون وقال:

"يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟"

قالوا "لا".

"إني علمت ما ائتمرتم به على محمد وإني جمعـت لكـم هؤلاء الفتيان".

وأمر الفتيان أن يكشفوا عما في أيديهم فكشفوا فـإذا كـل رجل منهم معه حديدة صارمة فقال:

"وا لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحدا حتى نتفـانى نحـن وأنتم "؛ فانكسر القوم وانصرفوا أذلاء من خوف أبي طالب.

نقول بالرغم من شدّة عطف أبي طالب وزوجـه النبيلـة فاطمة التي أحبها الرسول وشكر لها صنيعها؛ فسمى ابنتـه فاطمة تيمنًا باسمها، وعندما قضت شارك في حفر قبرهـا، وكان يقول صلوات ا عليه وسعوا لها في القبـر فـإن ا قد أوسع لها في الجنة، أو كما قال، بالرغم من ذلك فإن بركة ظلت الأم والأخت والحاضنة.

وكان لها عند زواجه بالسيدة خديجة الرأي، ولعله كـان الرأي الأول بعد رأي أبي طالب.

وكانت بجواره يوم زفافه.

وانتقلت معه إلى بيت السيدة خديجة.

وهنا أحست بركة أن مهمتها قد انتهت، وأن أمـا جديـدة قد فتحت له أحضانها، وأنه من الخير لها أن تعرف مكانها،

وكان بيت السيدة خديجة زاخرا بالعبيد والإمـاء ولـم يكـن لها في شرف خدمة محمد مكان.

وأحسَ محمد بموقف بركة وهو لا غنى له عنها.

وأحسَ أبو طالب بذلك أيضا، وكان لفضلها ذاكرا شاكرا.

وتحدَث محمد مع عمه في هذا الأمر، وتـدخلت السـيدة خديجة وحلت الأمر حلاً موفقًا، فقد كان أبو طالب يريـدها في بيته، وكان محمد يريد أن تبقى في بيت أبيه، ولكن السيدة خديجة رأت أنه قد آن الأوان لبركة أن يكون لها بيت عامر بالزوج والعائلة، واختار لها أبو طالب "عبيـد بـن عـوف" وزوجوها من هذا الرجل الذي وقع عليه الاختيـار، وكـان من أحب بني عوف من بني هاشـم إليـه، وبـذل محمـد في تجهيز العروس الكريمة الكثير، ودارت الأيـام دورتهـا عاما؛ فوضعت السيدة خديجة القاسم، وأنجبت بركة مولودا.

واستسمت بركة النبي ابنها فسماه "أيمن".

وهو الذي عُرِفَ بأيمن بن أم أيمن بن عبيد.

وقد جاء ذكره في التاريخ بأنه في موقعة خيبـر تخلـف عن القتال مع النبي فحزنت أمه وخاطبته خطابا قاسيا ذهـب مثلاً بين الناس.

وكان أيمن من أشد المسلمين بلاء فلم ترض قولة السـوء فيه عامة المسلمين، وخشوا أن تظل كلمات أمه خالدة تبـين عن عار وشـنار حـول اسـمه فـانبرى شـاعر النبـي حسان بن ثابت يقول شعرا يمحو به أثر ما قالت أمه فيه: -

على حين أن قالت لأيمـن أمـه　　　جبنت ولم تشهد فوارس خيبر
وأيمن لم يجـبن ولكـن مهـره　　　أضر به شرب المديد المخمر
ولولا الذي قد كان من شأن مهره　　　لقاتل فيهم فارسا غير أعسـر
ولكنه قـد صـده فعـل مهـره　　　وما كان عنـده غيـر أيسـر

ويشاء ا أن يكون أيمن بعد ذلك من شهداء حنين.

وقد جاء ذكره في جميع كتب السيرة باعتباره من شهداء بني هاشم من قريش.

وقد مات عبيد بن عوف والنبي عليه الصـلاة والسـلام في المدينة.

وكانت بركة لا تزال رقيقًا، ولكن النبي أعتقها وزوجهـا من ابنه المدّعى "زيد بن حارثة"؛ فولدت له أسامة بن زيد بن حارثة، وكانوا قد هاجروا جميعا مع النبي إلى المدينة، وأراد أسامة أن يحضر موقعة أحد وهو في الخامسة عشرة فصـدّه النبي عليه الصلاة والسلام مع صـبيان فـي مثـل عمـره عن القتال ولكنه ظل ملازما النبي عليه أزكى الصلاة بعـد وفاة بركة التي توفيت بالمدينة، وكان منـه بمثابـة الابـن أو الحفيد.

ولعل أقوى دليل على مكانة أسامة بن زيد بن حارثة وهو ابن بركة وابن زيد بن حارثة أن الرسول صلوات ا عليـه قد بعثه علـى رأس البعثـة إلـى أرض فلسـطين، وأوفـد مع أسامة بن زيد المهاجرين الأولين، وكانت بعثتـه آخـر البعوث قبل وفاة الرسول.

كما بعثه على رأس جيش لمقاتلة الهنيد بن عوص وابنـه عوض بن الهنيد حين أغارا على رسول ا وحية بن خليفة وغنم كان معه، وخرج أسامة على رأس هذا الجيش وثـأر لوحية، وظفر بالهنيد وابنه، ولما ثارت قولة السوء بحـديث الإفك عن عائشة أم المؤمنين رضي ا عنهـا - وخطـب

الرسول في الناس وكـادت أن تقـع الواقعـة بـين الأوس والخزرج، ودخل رسول ا على السيدة عائشة يسألها جليـة الخبر، وقبل أن يفعل دعا أقرب الناس إلى قلبه عليا بن أبي طالب، وأسامة ابن زيد بن حارثة فسأل أسامة عند رسول ا وأمه بركة العبد **الرّ**قيق أيضا.

ومما تقدَم من نشأته ﷺ يتضح لنا مدى تـأثر الـرَقيـق في نشأة المصطفى عليه الصـلاة والسـلام، وهـذا الأمـر على ما فيه من تشريف للرقيق ورفعـة لهـم ففيـه أيضـا إرهاصات بقدوم رسول العبيد والأحـرار بـل والإنسـانية، ورحمة لجميع البشرية ونتعرَض الآن للشـريعة الإسـلامية وكيف أنها وضعت شريعة للعبيد هي على النصـف غالبـا من شريعة الأحرار؛ ولأن الإسلام صالح لكل زمان ومكـان ولعلم الحنان المنان بما سيكون عليه أخبار آخـر الزمـان، من كثرة للعبيد وقلة وضعف للأحرار فقد أنزل ا عزَ وجل لكل فريق شريعة تناسبه وتناسب طبعه ووضعه؛ فقد صنف ا عزَ وجل الرجال عامة بعد تصنيفهم الفكري والعقائـدي إلى قسمين:

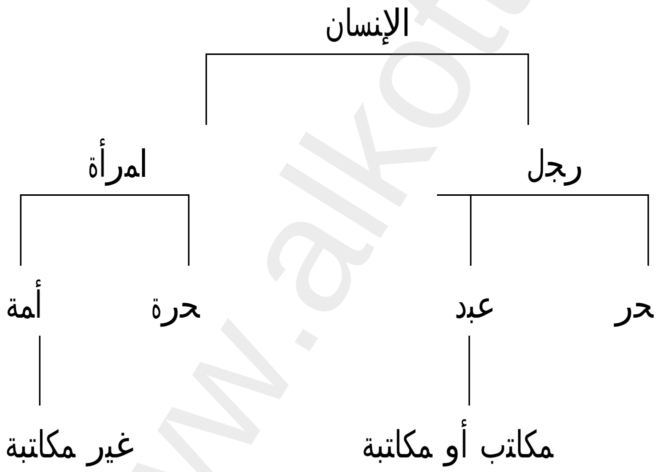
١ - رجل حر   ٢ - رجل عبد (رقيق)

كما صنف عزَ وجل النساء أيضا إلى صنفين:

١ - امرأة حرة ٢ - امرأة ملك يمين.

وملك اليمين في الحالتين إما مكاتب وإما غير مكاتب، والمكاتب هو من كاتبه مالكه على شيء إن فعله كان حرا وذلك لأنه فيما مضى كانت الحرية أفضل من نظام ملك اليمين.

وحتى نبسط الأمر للقارئ، أردت أن نشرح هذا التصنيف حساب التقسيم الآتي: -



والسؤال الآن الذي يطرح نفسه: ما هو المعيار الصحيح للحكم على الإنسان إن كان حرا أو عبدا؟ وما الفرق بين صفات الحر وصفات العبد؟!

أقول وا أعلم: - العبد سواء اعتبره المجتمع حرا أم عبدا حياته سهلة بسيطة جدا لا تهمه مبادئ ولا قيم ولا أخلاق، طموحاته محدودة، همه طعام وشراب وامرأة وأمور مادية ملموسة، لا يؤمن بالسمو الفكري والرومانسية وما إلى ذلك، يريد أن يضحك ويسعد ويمرح، وكل شيء عنده تقريبا هين، المهم أن يرضي شهواته وبأي طريقة، فهذا النوع عبد لشهواته؛ وبالتالي فجميع صفاته هي صفات العبيد.

أما الحرُ فحياته صعبة، وأحيانًا يراها البعض وخاصة العبيد معقدة، عنده مبادئ وقيم قد يموت من أجلها ولا يهتم، يعيش ليس لنفسه وإنما لهدف سامٍ يسعى إليه، هذا النوع قد تحرر من شهواته؛ وبالتالي فصفاته هي صفات الأحرار إذن نستطيع أن نختصر ونستخلص مما سبق أن العبد هو من تحكمت فيه شهواته حتى أصبح عبدا مسترقًا لها، من مال وطعام، شراب، جنس، لهو.. إلخ. بينما الحرُ هو من تحرر

من شهواته فسمت روحه وتحرَّرت مشاعره، وعاش للهدف السامي النبيل الذي وهب حياته له؛ فالشهوة عند هذا الإنسان لا تساوي شيئًا بجوار المبادئ والقيم الروحية التـي يـؤمن بها؛ ولهذا فقد فرَّق الإسلام بـين الحـر والعبـد، وبينهـا لنا رسولنا الكريم ﷺ أنه سيكون هناك عبيد للمال والـدراهم، فقال عليه الصلاة والسلام:

(تعس عبد الدينار؛ تعـس عبـد الـدرهم، تعـس عبـد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطِي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخـذ بعنان فرسه في سبيل ا أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان فـي السـاقة كـان في الساقة، إن استأذن لم يأذن له، وإن شـفع لـم يشـفع". ويقول أستاذنا الشيخ سليمان بن عبد ا بن محمد بـن عبـد الوهاب في كتابه تيسير العزيز الحميد فـي شـرح كتـاب التوحيد في شرح هذا الحديث ما نصه:

(وهكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو بصورة؛ أو نحـو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي؛ وإن لـم يحصـل له سخط فهذا عبد ما يهواه من ذلـك؛ وهـو رقيـق لـه؛

إذ إن الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته؛ فما استرق القلب واستعبده فهو عبده، إلى أن قال: وهكذا أيضا طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان؛ فمنها ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا مطلبه من ا يرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في ذلك بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبدوه فيكون هلوعا، ومنها ما لا يحتاج إليها العبد فهذه ينبغي ألا يعلق قلبه بها فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدا لها وربما صار مستعبدا معتمدا على غير ا فيها؛ فلا يبقى معه حقيقة العبودية ؛ ولا حقيقة التوكل على ا ؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير ا ؛ وشعبة من التوكل على غير ا ؛ وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: (تعس عبد الدرهم؛ تعس عبد الدينار؛ تعس عبد الخميصة؛ تعس عبد الخميلة). لأنه عبد لهذه الأمور؛ ولو طلبها من ا ؛ فإن ا إذا أعطاه إياها رضي؛ وإن منعه إياها سخط.

وإنما عبد ا من يرضيه ما يرضي ا ؛ ويسخطه ما يسخط ا ؛ ويحبُ ما أحبَ ا ورسوله، ويبغض

ما أبغض ا ورسوله؛ ويوالي ا ؛ ويعادي أعداء ا ؛ فهذا الذي استكمل الإيمان.

وإنني تعليقًا على كلام شيخنا الفاضل أقول: إن الشيخ ﵁ اعتبر أن العبد هو من يطلب من ا عزَ وجل أمورا دنيوية حسية فإن أعطاه ا إياها رضي وإن منعه سخط، ولكن ما بالنا بمن لا يسأل ا عزَ وجل، ولا يعتمد على ا ، ولا يتوكل عليه، بل يعتمد ويتوكل على الأسباب فقط، وينسى أو يتناسى المسبب عزَ وجل، كما هو حال كثيرين الآن عافانا ا وإياكم جميعا.

نستطيع أن نستخلص مما سبق أن الإسلام قد أقرَ وجود الرقيق؛ بل ووضع لهم تشريعا خاصا بهم، وكان رحيما بهم إلى أقصى درجة؛ بل ليس هناك مقارنة بين معاملة الإسلام للرقيق ومعاملة الأديان الأخرى لهم؛ الإسلام لم يعتبر الرَقيق سوى أخوانًا مسلمين لهم نفس الحقوق؛ وعليهم واجبات أقل؛ لذا فإنني أعتقد أن الإسلام هو دين العبيد والأحرار، وأما حضارتنا الحالية فهي حضارة عبيد ليس للأحرار فيها سوى القليل النادر.

فالمعلوم أن الإنسان روح وجسد، وكلما سما الإنسان وارتقى بروحه كلما تضاءل واضمحل تأثير شهواته الجسدية، والعكس صحيح فكلما أفرط الإنسان في إرضاء شهواته الجسدية كلما كان ذلك على حساب حياته الروحية. ونظرة الشرع الحكيمة للعبد كانت رحيمة رءوفة به، وتدل على مدى عظم الإسلام وشموليته وصلاحيته لكل زمان ومكان، فالعبد بالنسبة للحدود الشرعية هو على النصف من الحول، كما أنه معافى من صلاة الجمعة، كما أن الأمة مخففة الحدود الشرعية لها عن الحرة، كما يجوز للأمة شرعا كشف محاسنها ومفاتنها أمام الأجانب، فيجوز لها كشف الوجه والرأس والذراعين وما تحت الركبتين، أما الحرة فلا يجوز لها كشف غير العين على الأرجح.

وهذا عمر بن الخطاب ﵁ ومن صدّقه الوحي في مواطن كثيرة ومن إذا سلك طريقًا سلك الشيطان طريقًا غيره؛ كان ﵁ إذا رأى أمة تمشي بالطريق متحجبة ومتسترة بجلباب ضربها بالدرة وأزال عنها الحجاب وأمرها بإظهار محاسنها ومفاتنها، وأقول هذه شريعة الإسلام ومن رغب عنها فليس منا.

هل في العالم اليوم رق: -

قبل أن نجيب على هذا السؤال علينا أن نرجع إلى تعريف الرق وندرسه جيدا، ثم نقارن ما بين هذا التعريـف ووقتنـا المعاصر؛ وعندها سيتضح لنا إن كان الرق قد انتهى بالفعل من حياتنا، أم أننا جميعا أرقاء وبدون أن ندري، وكما سـبق وأوضحنا فالرق والعبودية فـي الحقيقـة همـا رق القلـب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده كمـا قـال أستاذنا الشيخ سليمان بن عبد ا محمد بن عبد الوهاب وكما أميل إليه، فالعبد هو من تحكمت فيه شهواته حتى أصبح عبدا بينما الحرُ هو من تحرَر من شهواته؛ فنمت روحه وتحررت مشاعره.

إن كان هذا أو ذاك فإنني أعتقد أن العـالم الآن عبـارة عن عبيد تموج في عبيد إلا القليل النادر ممـن رحمهـم ا عزَ وجل وربما يؤيد هذا الرأي الحديث الشريف عن حذيفة بن اليمان ﵁ قال:

كان الناس يسألون رسول ا ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن أقع فيه إلى أن قال قلت يا رسـول ا :

أبعد هذا الخير شر قـال عليـه الصـلاة والسـلام: هدنـة على دخن وجماعة على أقذاء.

قال: قلت يا رسول ا : الهدنة على دخن ما هي؟ قـال: لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه.

وأقول: الآن لا أرى أمامي سوى قلوب عبيـد يصـعب أن تتحوَل إلى قلوب أحرار، وإن الناظر المتمحص لتـاريخ العالم الحديث خلال القرن العشرين سيرى أنـه منـذ فتـرة ليست بالبعيدة، أمسك بزمام الأمور بكثير من البلدان سـواء إسلامية أو غير إسلامية مجموعة من العبيد؛ صفاتهم هـي صفات العبيد، وحياتهم شهوانية جسدية فقـط، لـيس لـديهم أي أهداف روحية سامية، وكان ذلك عقب الثورات المتلاحقة بكثير من بلدان العالم، "ثورات العبيد" وعلى رأسها الثورات الشيوعية كما سيأتي بيان بذلك؛ وسواء أكانت هذه الانقلابات متعمدة ومرتب لها عالميا كما ذُكِر ببروتوكـولات حكمـاء صهيون، أم كانت عفوية، إلا أن الواقع أن العبيد أصبحوا هم الحكام وأمسكوا الزمام لكثير من الأمور الهامة مـن إعـلام وثقافة وتعليم واقتصاد.. إلخ.

نتج عن ذلك أن أصبح العبيد بكـل الوسـائل يروجـون لما يرونه هم صوابا، ويسخرون علنًا من المبـادئ والقـيم الروحية للأحرار، حتى نجحوا في تغيير طبـائع الشـعوب وعقولها إلى طبائع وعقول العبيد، فتـرى شـعوبا بأكملهـا تسترق إن لم يكن لحكامها فلشهواتها، بينما العالم كله أصبح الآن رقيق للمال، إلا ما رحم ربي وقليل نادر ما هم.

وسأستشهد الآن قبل أن أكمل حديثي معكم بـبعض آراء لكُتاب أفاضل أسهموا في هذا المجال فجزاهم ا خيرا.

يقول الدكتور/ عبد الرحمن النفيسة في مقال لـه بمجلـة المنهل تحت عنوان:

(الرق بالمعنى الموضـوعي) يقـول: عـرف الإنسـان في تاريخه القديم أنواعا شتى من الـرق البشـري، تباينـت أسماؤه وتعدّدت صفاته رغم اختلاف علله وأسبابه، ولكنهـا لا تخرج عن سلطة إنسان على آخر فـي مفهـوم التبعيـة المطلقة، وتغير مفهوم الرق الجسدي في العصـر الحـديث، فلم يعد له وضع مباشر؛ وإن كان المدين في بعض القـرى الصغيرة القاصية في القارة الهندية ما زال معرضا للعبودية

عند عجزه عن الوفاء فيظل خادما لدائنه مطيعُـا لـه حتـى ينتهي أجله.

وتغير هذا المفهوم لا يعنـي زوال الـرق فـي معنـاه الموضوعي فليس الرق رق الجسد فحسب، بل الأصل هـو رق العقل.. وقد أصبح هذا في الزمن المعاصر أكثر شيوعا بل وأكثر خطرا، فالرق الجسدي قد لا يُبتلَـى بـه إلا قلـة من الناس، ولكن قد يُبتلَى بالرق العقلي الكثير منهم، وما ذاك إلا لأن انفعال العقل غير منظور فهو ينقاد طواعيـة حـين ينبهر بمظهر عاصف، أو فكرة أخاذة أو أسلوب مثير.

وإذا كان مما يسهل على المستعبد جسديا التحرر من رقه بوسائل مختلفة، كالضغط على مستعبده أو الهرب أو فكـاك نفسه منه، فإن المستعبد عقليا يصعب عليه أن يفعـل مثـل ذلك؛ لأن عقله قد استجاب للعبودية، فلا يستطيع الجسد حينئذ أن يحرره منها، وبالتالي لا يمكن أن يتحرر إلا بقوة عقليـة مضادة تفوق في قدرتها قدرة القوة الأولى.

وفي ميدان الصراع الحضاري تتصدر وسائل اسـترقاق العقل وسائل الصراع الأخرى لأنها أقـوى أثـرا، وأسـهل مدخلاً، وأسرع قبولاً، وأكثر دواما... فالإنسان بعفويته يقاوم

استرقاقه المادي بقوة الدفاع عن الـنفس، وحمـاس الثـأر للكرامة، وإثبات الذات، وسواء كان هذا الاسترقاق في شكل استلاب جسدي أو اقتصادي أو أي شكل مادي آخر، ولكنـه لا ينفعل حين يكون الاسترقاق فكريا خاصة في غياب الوعي ذاته منه أو البيئة التي يعيش فيها.

ويقول الأستاذ/ عبد ا ناصح علواني أستاذ الدراسـات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، في كتابـه نظـام الرق في الإسلام يقول: - والرق في القرن العشـرين كمـا سيأتي، أخذ لونًا آخـر، فتحـوَل مـن اسـترقاق الأرض، واسـترقاق الأسـرى، واسـترقاق الكبـراء للضـعفاء.. إلى استرقاق الشعوب جملة كما تفعل الـدول الاسـتعمارية الحاقدة والحكومات الشيوعية الملحدة؛ فإنها تفتك بالشـعوب فتكًا ذريعا مؤلما، فتسلب لها إرادتها، وتحرمهـا حريتهـا، وتحكمها بقوة الحديد والنار.. فلا تسمح لـرأس أن يرتفـع، ولا للسان أن يتكلم.. وكل ما عند هذه الشعوب من خيرات، وما تبذله من جهد في مضمار العمـل والاقتصـاد.. يجـب أن يسـخر لطواغيـت الاسـتعمار أو الشـيوعية.. لتنفقـه

في استعباد الأمم، واستذلال الشعوب، وكبت الحريات، وقتل الحريات، وقتل الكرامة الإنسانية..

من أجل هذا الاعتبار لم يلغ الإسلام الرق نهائيـا بـنص صريح قاطع. ثم يقول: - وماذا يعني أن يكون الرق تحـت عنوان الحرية والإخاء والمساواة؟ مـاذا تجـدي العنـاوين البراقة إذا كانت الحقائق التي وراءها هي أخبث ما عرفتـه البشرية من الحقائق في تاريخها الطويل؟

لقد كان الإسلام صريحا مع نفسه ومع الناس فقال: هـذا رق، وسببه الوحيد هـو كـذا، والطريـق إلـى التحـرر منه مفتوح، والطريق إلى إنهائه إذا اقتضى الأمر موجـود، أما الحضارة الزائفة التي نعيش اليوم في أحضانها فلا تجـد في نفسها هذه الصراحة؛ فهي تصرف براعتها في تزييـف الحقائق، وطلاء اللافتات البراقة!!

فقُتِلَ مئات الألوف في تونس، والجزائـر، ومـراكش.. لا لشيء سوى أنهم يطالبون بالحرية والاستقلال والكرامـة الإنسانية!!

وقُتِلَ مئات الألوف في أفريقيا للغرض نفسـه؛ ليعيشـوا في بلادهم أسيادا مكرمين، يعتقدون عقيدتهم ويتكلمون لغتهم ولا يخدمون إلا أنفسهم!!..

وقُتِلَ مئات الألوف من المسلمين فـي روسـيا؛ لكـونهم لا يقبلون عقيدة روسـيا الإلحاديـة، ونظامهـا الشـيوعي الماركسي.. قتل هؤلاء الأبرياء، وحبسهم في السجون القذرة بلا طعام ولا ماء، وانتهاك أعراضهم، السطو على نسـائهم، وقتلهن عاريات، وشق بطونهن للتراهن على نوع الجنين!!

هذا يسمونه في القرن العشرين حضارة ومدنيـة تحـت شعارات زائفة: الحرية، والإخاء، والمساواة.. ونحن نسـميه عبودية وظلما واسترقاقًا من نوع جديد.

أما المعاملة المثالية الكريمة التي كان يمنحهـا الإسـلام للرقيق قبل ثلاثة عشر قرنًا تطوعا منـه وإكرامـا للجـنس البشري في جميع حالاته فهذا اسمه - في نظر الحاقـدين - تأخر وانحطاط وهمجية..

حين يضع الأمريكان أعلى فنادقهم ونواديهم لافتات تقول: "للبيض فقط" أو تقول في وقاحة كريهة "ممنوع دخول السـود والكلاب" أليس هذا رقًا؟؟؟.

فلا تفهم الأسماء متى وضحت المسميات، ولكنه استرقاق للعالم أسره، حتى لمن يثيرون الشبهات حول الإسلام، وقديما قيل: -

قتل رجل في غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب بأسره مسألة فيها نظر

ويقول الأستاذ/ حسن السخي في كتيبه الإسـلام والـرق تحت عنوان: (هل في العالم الآن رق)؟

يقول: - إن من يتصفح طريقة العالم اليومي يجد عجبـا، أمما وقارات وشعوب بأسرها ترسف فـي ظـل العبوديـة والتبعية، لأمم وشعوب وقارات أخرى، فضلاً عن أن كـلاً منهما - السادة والعبيد - يعانون داخليا من هذه العبودية.

ثم يتساءل أليس هذا رقًا؟!

وكذلك أستاذنا الفاضل/ محمد قطب الذي يتكلم عـن رق القرن العشرين فيقول: - أليس الرق هو تبعيـة قـوم لقـوم آخرين؟ وحرمان طائفة من البشر مـن الحقـوق المباحـة الآخرين؟؟.

ألا نستطيع أن نستخلص مـن الآراء السـابقة أن الـرق في عالمنا المعاصر موجود وبصورة أوسع بكثير مما كـان عليها في الماضي، ألا يكفي أن بداخل كل منا قلـب رقيـق وليس قلبا حرا؛ رقيق لماله رقيق لشهواته؛ رقيـق لأبنائـه وزوجته.

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُمْ وَإِخْـوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَـوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَـيْكُم مِّـنَ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾

وكما قال عليه الصلاة والسلام: "لا ترجع قلـوب أقـوام على الذي كانت عليه".

وتأكد عزيزي القارئ أن رق القلب والعقل هما أصـعب بكثير من رق الجسد؛ فالقلب يهوى، والعقل يفكر، والجسـد ينفذ أوامرهما؛ فإذا استرق القلب فقد استرق العقل والجسـد؛ وأصبح هذا الإنسان عبدا في حقيقته ولو كان سيدا في قومه.

وإن أعمَّ الأمراض هي أمراض القلوب فإذا ما فسد القلب فجميع الأعمال ستكون فاسدة وإن كانت في ظاهرها صالحة،

أما إذا صلح القلب وصدق العمـل هـذا الصـلاح فقليـل من العمل يفيد والكثير له الثواب الجزيل.

قال ا تعالى: ﴿**لهم قُلُوب لا يفْقهون بِها**﴾ وقـال عليـه الصلاة والسلام (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صـلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب). وقال عليه الصلاة والسلام (الإيمان ما وقر في القلـب وصـدّقـه العمل) وقد يوقر الإيمان في العقل ولا يصل إلى القلب؛ فتجد هذا الإنسان مؤمنًا بعقله يعلم أن هناك جنـة ونـار فيعمـل ليدخل الجنة وينجو من النار ويؤدي فرائض الإسلام الخمس مع السنة، ولكن قلبه متعلق بالدنيا منشـغل بـأمور الحيـاة اليومية من قوت وأسرة وخلافه، فتجده سارحا في صـلاته رغم مواظبته على الجماعة، هواه ليس تبعا لما جاء به سـيد المرسلين عليه الصلاة والسلام وإنما قلبـه متعلـق بالـدنيا أما عقله فيقاوم هذا الهوى ويؤدي فرائض ا عـزَ وجـل؛ وهذا هو إيمان العبيد وما عليه كثير من الملتزمـون منـا، لذا فالقابض على دينه كالقابض على الجمر؛ فالقلب متعلـق بمباحات الدنيا ويهوى أمورها، أما العقل فقد خـالف هـواه

وأمر الجسد بفعل أعمال للآخرة، ومن ينجح في ذلك هم قليل وقابضون على الجمر.

وقد قال رسول ا ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هـواه تبعا لما جئت به). والمشكلة أن القلوب كما قال عليه الصلاة والسلام لم تعد إلى ما كانت عليـه. وقـال عليـه الصـلاة والسلام: (ما سبقكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام ولكن سـبقكم بشيء وقر في قلبه).

ﷺ عنه وعن الصحابة أجمعين؛ ولهذا فقـد قـال عليـه الصلاة والسلام (لو وُضِع إيمان أبي بكر في كفـة وإيمـان الأمة في كفة لرجحهم إيمان أبي بكر). ولا ننسى أن ما وقر في قلب أبو بكر ﷺ صدَّقه عمله.

نظرة متفحصة لحضارتنا الحالية (حضارة العبيد) كيف وصلت إلينا؟؟؟؟:

كانت الحضارات القديمة حضارات روحية فـي المقـام الأول ثم فكرية، وكان ذلك على حساب الماديات، وبمـرور الوقت طغى العقل والفكر على الروح والمشاعر شيئًا فشيئًا، حتى ظهر مذهب الفيلسوف الألماني هيجل صاحب ما أسماه بالنظرية الفكرية الحديثة، ولباب مذهبه (أن الوجود الحق هو وجود الفكرة المطلقة، وأن الفكرة أبدية أزلية قادرة على كل شيء، ولكن بالقوة والقابلية.. فإذا أرادت أن تحقق كل شيء بالفعل، فإنما سبيل ذلك أن تحققه في أطوار التاريخ، والفكرة تعرف كل شيء كذلك بالقوة والقابلية).

يتضح من فكر هيجل أن العقل متمثل في الفكرة، ثم المادة متمثلة في القوة والقابلية، هما أساس الحضارة عنده مهمـلاً بذلك الجانب الروحي تماما.

ثم جاء من بعده كارل ماركس، صاحب الحضارة المادية الحالية، فأبقى إطار مذهب هيجل بعد تفريغه مـن محتـواه،

ونقله من مذهب فكري لا يرى في الكون شيئًا إلا الفكـرة، إلى مذهب مادي لا يرى في الكون شيئًا غير المادة، وأطلق على مذهبه اسم المادية الثنائية، وبيان مذهبه "أن المادة هـي كل شيء، والفكرة مخلوقة من المادة، والوعي الإنساني هـو أعلى ما ارتقت إليه المادة من أطوار التاريخ، وإذا ما نظرنا إلى أصحاب الحضارة المادية الحالية، سنجد أنهم هم أنفسهم رقيق الأمس، تحرروا شكلاً فقط، بينما مضمونهم كمـا هـم عبيد، تحررت أجسادهم بينما قلوبهم وعقولهم هـي قلـوب وعقول العبيد؛ وبالتالي هم عبيد لا محالة، طباعهم وميـولهم تدل على ذلك، عبيد وهم المسيطرون، عبيد يملكون الأحرار بعد أن كان الأحرار هم المالكون لهم".

وبمرور الوقت صنعوا هذه الحضارة الحاليـة؛ حضـارة مادية بحتة (حضارة عبيـد)، وإن أتبـاع هـذه الحضـارة - بحكم عقيدتهم - لا يؤمنون بدين ولا خالـق ولا مبـادئ ولا مُثُل. بل كل هذه هم يعتبرونها شعارات وضعتها الـنظم الرأسمالية، أما شعارهم أنت حرٌ ما لم تضر وحقيقة كما قلت ببداية الكتيب، العبد حياته بسيطة، لا هدف سامي يسعى إليه، وأقول الآن حياته مادية بحتة، يريد أن يكون سعيدا وفقـط،

على حساب المبادئ، على حساب القيم، على حساب أي شيء لا يهم.

وحتى أكون منصفًا، فالحضارة المادية - الفكرية الحالية- هي حضارة هذا العصر، أرادها ا عزَ وجل لهذا الزمان؛ لذا فهي واقع ملموس لا يستطيع أحد إنكارها، ولا أخفي عليكم إعجابي وانبهاري بها، ربما لأنني لم أجد بمجتمعي لا حضارة روحية ولا مادية ولا حتى هستيرية، ولكن هذه الحضارة المادية لم تسبب سعادة للإنسان ولن تسبب، بل على العكس، كلما سيزداد الواحد منا تمدينًا وتحضرا ستزداد تعاسته تدريجيا؛ وذلك لأن حضارتنا الحالية حضارة بلا قلب، حضارة بلا روح، حضارة عبيد، نشئوا فوجدوا حياتهم كلها عمل وكد وتعب، ولم يجدوا وقتًا للسعادة ولا لتربية أرواحهم، ومن الطريف أنني ذهبت لحضور دورة في أساليب الإدارة الحديثة، وكان زملائي بها هم مجموعة مديرين للعديد من الشركات فماذا كان شعار الدورة.

"إذا أردت أن تظل مكانك فعليك أن تجري، وإذا أردت أن تتقدم فاركب دسكفري" فعلاً أصبح كل شيء في العالم الآن جري في جري، سباق حميم، لا وقت للمشاعر، لا وقت

للأحاسيس الجميلة، وعلى الإنسان أن يفكر وهـو يجـري، أما إذا وقف ليفكر فسيداس بالأقدام، أو بمعنى آخر فخـلال اللحظات التي سيقفها للتفكير سيجد نفسه قد تخلف عن العالم كثيرا وأصبح في عداد المتخلفين، الود الآن يولد من بطـن أمه فيدخل السباق، فإذا سأل" هو إحنا بنجري ليـه" سـيجد الإجابة "يا بني اجري ما تعطلناش دا لسـة هيسـأل! إحنـا عارفين العيال الخايبة بتجيب الأسئلة دي منين؟؟؟

فينخرط الولد متأثرا بأبويه الجهولين اللي جـايين الـدنيا ما يعرفوا ليه ولا بيجروا ليه ولا رايحين فين، ولا عـايزين إيه! ظلمات بعضها فوق بعض! بلاليص عم بتهيص.

وفي السطور المقبلة، سأحاول على عجل عقـد مقارنـة سريعة بين صفات الإنسان المعاصـر، والممثـل لحضـارة العبيد، وصفات الجيل السابق، والذي ليس ببعيد، لنرى هـل هناك اختلافات جوهرية، أم أن هناك مبالغة وهمية، وسأوجز المقارنة في عدة نقاط كالآتي: -

١- فيما مضى كان كثير من الرجال يتحلون بصـفات عديدة مثل الكرم والشهامة والتضـحية مـن أجـل الآخرين والشجاعة والإقدام، أما الآن فالكرم أصبح

هبل، والشهامة عبط، والتضحية جنـون؛ وأصـبح مكانها مصطلحات أخرى مثل هذا الإنسان مفـتح، فهلوي، يفهمها وهي طائرة، وكل هذه صفات مـدح لشخص كان يعتبره الأوائل منافقًا، كذابا، مخادعـا، وقد يكون راشيا ومرتشيا، ولكن هذا هـو الإنسـان الناجح في عصرنا الآن، عصر العبيد، فلكي تـنجح فلا بد أن تكون دبلوماسيا، أي يجب أن تكون منافقًا وكذاب ومخادع.. الخ. من الآفات العصرية الجديدة، وفي المقابل تجدهم يصفون إنسان آخر بأنـه قفـل وغير مفتح بينما هو من يرفض أساليبهم المـاكرة، ولا يفهم لغة العصر الجديدة، فهو إنسان صـريح، واضح، صادق لا يكذب، ولا يجيد النفاق والخداع، وهذا هو التقي الورع بلغة الأوائل.

في ما مضى عندما كان الإنسان يريد أن يقـيم شخصـا بعينه فإنه يقيمه من عدة زوايا: -

١ - دينه وفكره

٢ - خلقه وسيرته.

٣ - حسبه ونسبة ووضعه الاجتماعي.

ثم:

٤ - ماذا يملك من أمور مادية تعينه على الحياة.

أما الآن ففكر العبيد المادي الشهواني يقتضي الآتي: -

إنت معاك قرش، إنت تساوي قرش، إنت ما معاكش، إنت مايلزمكش.

بالطبع هناك فرق كبير في الفكر، في المبـدأ، وبالتـالي في أسلوب التعامل ، والأهم من كل ذلك النتائج.

الأول عنده المبادئ والقيم والمنبت الجيد ثـم بعـد ذلـك المادة، أما الثاني فعنده المادة هي كـل شـيء، أمـا القـيم والأخلاق والعراقة الأسرية، فهذه أمور ثانوية قد لا يُنظَـرُ إليها، وأعتقد أن الفرق واضح وكبير بين الصنفين.

الرجل العصري الآن والذي هو بمثابة فتى الأحلام لكثير من الفتيات ما هي مواصفاته؟!

مواصفاته كالآتي: - يجب أن يكون مودرن وشيك ودمه خفيف، لا يهم أن يكـون خـالي الـذهن، خـاوي الفـؤاد؛ فالحضارة الحالية هي حضارة أجساد ليست حضارة قلـوب وأرواح، وفي المقابل تجد كثيرا من نساء هذا الزمان تتمنى

لو كانت رجلاً، أي أن الرجل تأنث، والمرأة تترجل وتطالب بالمساواة مع الرجل، ولا حول ولا قوة إلا با .

فمثلاً مشاهير الفن بالعالم من الرجـال يرتـدين بعـض زينات النساء من حلق ذهبيـة وخـواتم.. إلـخ ويضـعون مساحيق التجميل كما تفعل النساء، ولو أن الأمـر مقتصـر عليهم لقلنا إن هذه قلة لا يمكن القياس عليها، ولكـن عنـدما نجد أن هذا الأمر قد انتشر بـين فئـة المشـاهير ولاقـى استحسان وإعجاب من الشباب والفتيات، ليس فقط بأوروبـا، وإنما أيضا بالعالم الإسلامي، عند ذلك نقول إن هذا الأمـر أصبح ظاهرة موجودة، وهي تشبه الرجال بالنساء، وتشـبه النساء بالرجال، وهي ظاهرة لم تكن موجود من قبل، ونعلم جميعا الاستقبال الباهر الذي قوبل به مغنى أتى من الغـرب لزيارة بعض البلاد الإسلامية والعربية، رغم أن هذا المغنى يضع المساحيق ويرتدي الذهب وما هو أفضح.

وهل كان هذا الاستقبال العظيم سوى تعبير عن الإعجاب والانبهار، إنه فكر العبيد يا أخي يتجسد أمامنـا فـي واقـع الحياة.

٤ - نرى الموسيقى القديمة- رغم اختلاف العلماء في تحريمها- ربما تكون جميلة رقيقة، هادئة، وصنعت للروح ومخاطبة الروح؛ لذا ترى الإنسان الحر عندما يسمعها ينصت إليها بهدوء، يستقبلها بروحه وبمشاعره الجياشة، تدمع لها عينه وهو يتلذذ بذلك كل اللذة، نفس الشيء عندما يسمع القرآن الكريم، ويلامس هذا السمع عقله وقلبه، تجده يستمع في تدبر وتفكر وخشوع وإنصات، وتدمع عيناه وتسكن خاشعة جوارحه؛ هذا لأنه في الحالتين الخطاب للروح وليس للجسد.

في المقابلة نجد موسيقانا الحالية، والتي تعتمد على التنافر والصخب والضوضاء بدلاً من التناسق والهدوء والسكينة، فتجد الأجساد تتحرَك، وتبدأ الجماهير في الرقص والقفز والمرح بينما قلوبهم خاوية، أرواحهم متدنية؛ لأن هذه الموسيقى وضعت لتخاطب الجسم لا لتخاطب الروح والمشاعر.

وبغض النظر عن أن المؤلف والملحن للأغاني الحديثة، وجد أن المجتمع قد تغير وأصبحت طباعه هي طبائع العبيد، فألف لهم مثل هذه الأغاني، أم أن المؤلفين والملحنين

الحاليين هم من العبيد فلا يستطيعون سوى تأليف مثل هـذه الأغاني، أم أنها خطة لتغيير طبائع البشر وجعل الشـهوات هي المتحكمة فيهم، إلا أن النتيجة في جميع الحالات واحدة؛ فالذوق العام اختلف والطبائع اختلفت وكثير مـن الشـعوب تحوَلت من أحرار إلى عبيد، من أرواح إلى أجساد، من سمو أخلاقي وفكري إلى مادة فقط.

لا أريد أن أطيل في المقارنة بين فكر الأحرار والعبيـد، بين فكر الأوائل وفكرنا وطبعنا الآن، فـالأمر أعتقـد أنـه واضح، وعلى من يريد المزيد أن يتفكر فقـط فـي واقعنـا المعاصر ويقارنه بجيل بداية الـدعوة والتـابعين؛ وعنـدها سيلحظ هو الفرق الكبير بنفسه ولكن قبـل أن أنتقـل لفقـرة أخرى أردت أن أضرب لكم مثلاً أخيرا ومن أكبر دولة عتادا وعدَة في عالمنا المعاصر: -

رئيس منتخب من شـعب دولـة متحكمـة لحـد كبيـر في سياسات العالم أجمع، ويعتقد العالم المعاصـر أن هـذه الدولة هي الدولة العظمى الوحيدة حاليا.

يهتم رئيس تلك الدولة بصفات هي صفات العبيد، ككثيـر من رجال ونساء هذا الزمان، يهتمون بالجسم وشهواته أكثر يهتمون بالروح والسمو الأخلاقي، لذا فهم عبيد لشهواتهم.

علم خصوم هذا الرئيس بصفاته الشهوانية والتي تميـزه بوضوح، فما كـان مـنهم إلا أن قـاموا بتصـويره وهـو في أوضاع مخجلة ومخلة بالآداب، في مكتبه تارة وفي قصر رئاسته، وكأنه في بيت للدعارة وليس بقصر رئاسة وسياسة.

أين القيم؟ أين المبادئ؟ أين البروتوكول؟ أيـن؟؟ أيـن؟؟ أين؟؟؟

ومعلوم أن هذا الرئيس متزوج ولديه أسرة، ودينه يحـرم عليه الزواج بأخرى، بل ويحرم عليه الطلاق أيضا.

أين أوامر دينه ونواهيه؟؟ أين الأخلاق والمبادئ؟؟؟ وأين القيم؟؟؟

أين...؟؟؟ هل كله أمام الشهوة يهون؟؟؟ حضارة جسـدية (حضارة عبيد).

هذا الرجل إذا حوكم بشريعة الأحرار، فيجب أن يكـون عقابه الرجم، وإذا ما سألت إنسانًا حرا فسيجاوبك على الفور يرجم، ولا حل آخر.

وعلى النقيض من هذا أتت امرأة حرة في عهد الرسـول ﷺ واعترفت على نفسها بالزنا، رغم علمها أنها سترجم.

بل جاءت للرسول ﷺ تطلب منه عليه الصـلاة والسـلام أن يأمر برجمها، فأمرها عليه الصلاة والسـلام أن تـذهب حتى تلد، فذهبت، ثم رجعت بعد الولادة، فقـال لهـا عليـه الصلاة والسلام "اذهبي حتى ترضعيه" فعادت بعـد أن أتـمَ الرضاعة، وفي يده شيء يأكله كدليل على إتمام الرضـاعة، وطلبت أن يقام عليها الحد.

ما هذه القوة والصلابة؟

من أين هذا الإيمان والإصرار على طاعة ا ؟

هؤلاء أقوام الشهوة عنده لا تساوي شيئًا إذا ما تعارضت مع القيم والمبادئ والأسس والـروح، بـل الحيـاة عنـدهم رخيصة سهلة في سبيل إرضاء ا وتنفيـذ أوامـره، فهـذه المرأة بآلاف من رجال اليوم، وهذه مـن ارتكبـت خطيئـة وتابت توبة لو وُزعت على أهل الأرض لوسعتهم، اعترفت

بخطئها عن طيب نفس وخاطر، رغم علمها بعواقـب هـذا الاعتراف.

أما رئيس الدولة المزعوم، عندما سُئِلَ عن فعلته الشنعاء، كذب وأنكر أن يكون قد ارتكب هذا الأمر، وأعطتـه دولتـه فرصة كبيرة حتى يعترف بدلاً من الكذب والإنكار، ولكنـه لم يفعل ولن يفعل طالما أنه يعتقد أنه ليس هناك دليل مـادي على فعلته الشنعاء، فهذه صفات العبيد.

ولكن بعد مرور فترة ليست بالقصيرة، تقرر بدء التحقيق معه، فذهب للتحقيق وبكل جرأة وإصرار حنث باليمين الذي حلفه أمام المحققين..

يا إلهي.. لم هذه الجـرأة علـى يمـين ا ؟؟.. وكيـف تكون...؟؟ ومن ؟؟؟؟

من رئيس أقوى دولة مادية بالعالم؟؟، من ممثل الحضارة العصرية والتقدُّم والتكنولوجيا؟؟؟ يرتكب الفاحشـة بمكـان العمل ويكذب ثم يحنث باليمين؟؟؟ ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل ا له نورا فمالـه من نور.

أين احترامه لنفسه ولشعبه؟؟؟.

ولو أننا تساءلنا ماذا كان سيحدث له لـو أنـه اعتـرف وصدق في قوله من البداية؟! الأمر أقسى وأقصى مـا فيـه أن يقال الرئيس نتيجة لاعترافه، ومعلوم إن إقالتـه كانـت ستأخذ وقتًا طويلاً نتيجة للإجراءات المطولة في هذا الشأن؛ أي أنه سيترك كرسي الرئاسة قبل عام من انتهاء مدة رئاسته الرسمية، علاوة على الفضيحة بين البشر، ولكـن أنخشـى الناس وا أحق أن نخشاه.. سأورد فـي السـطور القادمـة مقارنة بسيطة بين واقعة الرئيس (العبـد) وواقعـة المـرأة الحرة، حتى نعلم الفرق بيننا وبينهم، بين جيلنا وجيلهم، بـين ماديتنا وفكرهم، بين شـهوانيتنا وسـموهم، بـين أجسـادنا وأرواحهم.

المرأة (الحرّة)	الرجل (العبد)
١ - فعلت الفحشاء خطأ ولم تكن معتـادة على ذلك.	١ - متعود "دايما"
٢ - أنبها ضميرها فتابت فورا.	٢ - لم يؤنبه ضميره فهو متعود.
٣ - مبادئها أهم بكثير من شهوة فانية	٣ - الشهوة عنده أهـم مـن كـل المبادئ والقيم.
٤ - ذهبت لتعترف رغـم علمهـا أنهـا	٤ - كذب ولم يعترف رغم أنه لـو

الرجل (العبد)	المرأة (الحرّة)
اعترف فلن يصاب بأذى؛ فمجتمعه متعود دايما، ولكن فضحه ا وأقيمت عليه البينة.	ستموت نتيجة لهذا الاعتراف، ولكنها آثرت أن تضحي بحياتها إرضاء .
٥ - أخذ فرصة كبيرة، وكان بوسعه أن يعترف بدلاً من الكذب والتزوير والحنث باليمين، ولكن لم يفق ضميره من ثباته العميق، بل ضحى بكل المبادئ والقيم وآخرها الحنث باليمين ليخفي جريمته الشنعاء.	٥ - أخذت الفرصة تسعة أشهر حتى تلد، ثم سنتين تقريبا حتى ترضع، وكان بوسعها أن تهرب وأن تغير أقوالها حتى لا تتعرَض للعذاب والقتل، ولكن مبادئها وقيمها السامية كانت فوق كل شيء حتى حياتها نفسها.
٦ - أقيمت الحجة والبينة على جميع أفعاله من زنا وكذب وحنث باليمين واستمرَ كما هو رئيسا للدولة العظمى ومثلاً للعبد المتحضر المثالي.	٦ - أصرَت على إقامة الحد عليها وسمت روحها وصعدت للسماء راضية مرضية.

من هنا وبعد هذه المقارنة يتضح لنا جليا أن هناك فرقًا كبيرا؛ فهذه حضارة وتلك حضارة أخرى، نحن لنا فكر وهم لهم فكر آخر. نحن نوع من البشر، وهم نوع آخر، نحن ماديون وهم روحانيون، نحن ذنوبنا وعدم صدقنا نزلت

بنا للجسد، وهم إخلاصهم وصدقهم مع ربهم وإيمانهم وعملهم الصالح رفعهم إلـى الـروح، حتـى أن خليفـة المسـلمين عمر بن الخطاب ينادي وهو على المنبر في المدينة ويقول:

- يا سارية الجبل ثلاثًا فيسمعه سـارية وهـو فـي أرض المعركة بالشام على بعد ما يقارب الشهر سفرا.

ولكن أريد أن أشير أيضا، إنه بالنسبة للمقارنة المتقدمـة، فإن رئيس الحضارة الحالية قد نزل بأخلاقه إلى ما هو دون مستوى العبيد.

فالعبيد محرَّم عليها الزنا، وكذا محـرَّم علـيهم الكـذب وبالطبع محرَّم عليهم الحلف الكاذب، ولكن عندما ترتكب هذه الجرائم من عبد فليست كما ترتكب من حر؛ ولهذا فقد فـرَّق ا عزَّ وجل في العقوبة بين العبـد والحـر، وبـين الأمـة والحرَّة، وكما سيأتي بيان ذلـك فـي حينـه إن شـاء ا ، (فالعبد في كثير من الأحيـان مخففـة عقوبتـه والتزاماتـه عن الحر، وكذلك الأمة مخففة عقوبتها وحدودها والتزاماتها عن الحرة) ولكن من يدري ومن يعلم؟؟ فالمسـلمون نيـام، ولا يدرون عن أمور دينهم شيئًا، هذا بخلاف أمور دنيـاهم، وإلى ا المشتكى.

لذا فأنت ترى كثيرا من كُتابنا العلمانيين والماديين اليوم، يرفضون بشدّة وينتقصون الحدود الشرعية فـي الإسـلام، ويصفونها بالقسوة وعدم الصلاحية لهذا الزمان، فهم يـرون الجرائم الكبيرة- والتي تعتبرها الأحرار كذلك- يرونها هـم شيئًا بسيطًا لا يستحق أن يقابل بمثل هذه العقوبـة الفظيعـة في نظرهم.

فإعدام القاتل تحاربه الآن منظمات عالمية كثيرة، وقطـع يد السارق بالنسبة لأهل زماننـا أمـر فـي غايـة القسـوة والفظاعة، يتساءلون ما هذا؟!

تقطع يده ولم؟

ألأنه فقط سرق؟؟ يا أخي غلطـة وهـايتوب، الشـيطان ضحك عيه وهايتوب، تقوم إنت بهذه القسوة تريد أن تقطـع يده، وتعمل له عاهة مستديمة؟ ما هذا؟ لا لا المجتمع يرفض ذلك!

تأتي لرجم الزاني، يعتبره أهل هذا الزمان جريمة في حق البشرية، وقسوة وفظاعة لا مثيل لها.

ويتساءلون لم كل هـذا؟! يـا شـيخ وزة شـيطان، وزة وفاتت.. إلخ.

وما هذه الاستهانة بأمر الجرائم الكبيـرة واستصـغارها، والرفض التام للحدود الشرعية، سواء تمَ التصـريح بـذلك أم لم يتم، إلا لأن المبادئ والقيم الروحية قد نفدت، والإيمان قد انسلخ من القلوب، ودخل بدلاً منه حب الدُنيا وشـهواتها، وكراهية الموت، وأصبح الإنسـان عبـدا لشـهواته بـدلاً من أن يكون عبدا .

أصبح همه إرضاء لرغباته وشهواته، ونسـي أيـام ا والتي ستعود فور انتقالنا من الدُنيا الفانية إلى حياة البـرزخ الباقية؛ ونتيجة لهذا النسيان بدأ الإنسـان ينـادي بالرحمـة والشفقة مع مرتكبي هذه الجرائم. وبدأت المـرأة تتسـاءل؟؟ لم تتحجب وتخفي جمالها؟! وبدأ الرجال يشجعونها على ذلك وأطلقوا على ذلك تحررا رغم أنه عبودية للشـهوة، وباتـت هذه النوعية من البشر ترى أن الـدين هـو عـدوها الأول، وأنه من الصعب عليها إن لم يكن مستحيلاً أن تلتزم بأوامره ونواهيه؛ فهي تجد فيه صـعوبة كبيـرة وقسـوة، وتصـفه بالرجعية.

وإنني لمتأكد أن هذه النوعية لو عُرِضت عليهـا شـريعة العبيد لأحبتها، ولوجدت فيها ما يناسبها وهذا من حكمـة ا

عزَ وجل ورحمته بعباده، ولطفه بهم، وما يدل على صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان.

ولكن هل العبيد على حق فيما يرونـه؟! وهـل كـونهم محبون للشهوات وطبعهم وتكوينهم هو طبع وتكوين العبيـد كما وضحنا سابقًا، هل يعيبهم ذلك؟؟؟

وهل يخرجهم من حظيرة الإسلام؟؟ وهـل هنـاك أمـل في تحويل هؤلاء العبيد إلى أحرار؟ أم أن الأمـل ضـعيف؟ وهل هناك ضرورة لتحويلهم؟

(أقول وا أعلم) قبل أن أبدأ حديثي سأحكي لكـم حـديثًا نبويا شريفًا عن رسولنا الكريم صلى ا عليه وسـلم قـال (إن ا عزَ وجلّ عندما خلق النار أرسل جبريـل ﷺ كـي يراها.. إلخ).

أقول وا أعلم أن العبيد حياتهم سهلة قد تكـون خاليـة من الهموم تقريبا؛ لأنها خالية من الأهـداف النبيلـة التـي قد تؤرق منامهم، وتدفعهم للعمل الدءوب، حيـاتهم لأنفسـهم ومصالحهم وفقط، لا مشاعر، لا أحاسيس، لا مبادئ ولا قيم، وقد توجد مبادئ وقيم تناسـب العبيـد وتحكمهـم جميعـا، ألا وهو مبدأ المصلحة وفقط. كل شيء مادي بحـت، أنـت

معك قرش إذن أنت تساوي قرش، أنت ما معكش إذن أنـت ما يلزمكش وفقط، ولكن لا نستطيع أن ننكر أن هذه الأسس والمبادئ المادية، وإن كانت قاسية ومهملة للجانب الروحي والأخلاقي، إلا أنها أنتجت أعظم حضارات العصر، صحيح أنها حضارة عبيد، ولكنها حضارة عظيمـة أثمـرت علمـا وتكنولوجيا وتقدُّم بجميع المجالات واكتشافات مذهلة.. إلـخ وقد أنشأت هذه الحضارة على أسس ماديـة بحتـة وقليـل من الجانب الروحي.

ولأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فقد وضع لهؤلاء شريعة تناسبهم؛ فالمرأة الحرَة لا يجوز لها أن تظهـر شـيئًا من جسمها أمام غير محارمها، وأجاز بعض العلماء ظهـور العينين، واختلاف العلماء في حكم ظهور الوجه والكفين.

بينما الأمة: يحق لها كشف الوجه والشـعر والـذراعين وجزءا من الصدر والظهر وما تحت الركبتين، ولا تأثم بذلك فهذا الأمر مباح لها شرعا، وهي بحالتها هذه قد تكون أتقـى وأنقى بمراحل من إنسانة حرة تكشف جـزءا مـن شـعرها أو جزءا يسيرا من ذراعها، فالأمة تفعل المباح فلا إثم عليها، بينما الحرة تقترف الحرام مجترئة على ا عزَ وجل.

ولا يعيب الإنسان أن يكون شهوانيا إذا كان فـي حـدود الشرع والدين، ولكن إذا تعدى حدود الشرع فهذا هو الهلاك وتلك هي المصيبة، ولأن يكون الإنسان عبدا ملتزما بـأوامر ا أفضل بكثير من أن يكون حرا متعديا على حدود ا ، قال تعالى:

﴿ولعبـد مـؤْمن خَيـر مـن مشْـرِكٍ ولَـو أَعجـبكُم﴾

وقال تعالى: ﴿ولأَمةٌ مؤْمنَةٌ خَير من مشْرِكَةٍ ولَو أَعجبتْكُم﴾

المهم هو رضا ا عز وجل فإن تحقق هذا الرضا تحت بند العبودية فأهلاً به، وإن تحقق مع الحرية فهو أفضل.

من هذا المنطلق فإذا أصبحت جميع النساء غير المحجبات واللاتي تراهن يوميا وباستمرار، سواء بالتلفاز من مـذيعات وفتيات وفنانات ومسلسلات.. إلخ.

أو بالمسرح سواء فنانـات أو راقصـات أو مشـاهدات إذا أصبحن هؤلاء النسوة إماء بدلاً مـن أحـرار، فسـوف يختلف الأمر بالنسبة لهـن، وأيضـا بالنسـبة لجمهـورهن ومشاهديهن من الرجال، فبدلاً من أن يكون الأمـر حرامـا ويأثمون جميعا به، يصبح حـلالاً ومباحـا شـرعا، وبـدلاً

من أن يجلس الرجل منا أمام التلفاز ليتابع نشـرة الأخبـار أو بعض البرامج فيقوم محملاً بالذنوب تحسب عليه، وأقـل ما سيراه: مذيعة يشترط أن تكون جميلة وفاتنة ومثيرة تقـدم له نشرة الأخبار والبرامج، ويبدأ الملك فـورا فـي تسـجيل الذنوب والسيئات، ويقوم الرجل من جلسته وعليـه سـخط من ا وغضب قد يغير مجرى حياته؟.

بدلاً من كل هذا فإذا كن نساء التلفـاز إمـاء، فسـيجوز للرجال مشاهدتهن، سواء مذيعات، أم راقصات، أم فنانـات، أم مغنيات فيجوز أيضا الاستمتاع بغناء الأمة.

وفي حالة تعميم هذا الأمر على جميع النساء المتبرجات، فيجوز في هذه الحالة للمرأة الرافضة للحجـاب أن تظهـر مفاتنها طبقًا للشريعة الإسلامية الخاصة بالإماء كمـا تقـدَم، ويمكنها في هذه الحالة متابعـة أحـدث أخبـار الموضـات والصيحات العالمية، كما ويمكنها الالتحاق بمجالات محرمـة على الأحرار من النساء، كالفن والإعلام، وأي مجال يتطلب من المرأة كشف أجزاء من جسمها غير الوجه والكفين أمـام الرجال الأجانب، كما ونعلم جميعا قضية محاربة الحجـاب الإسلامي للمرأة بالعديد من الدول العلمانية، والتي بعضـها

في الأصل دول إسلامية كتركيا وفرنسا وبعض دول أوربية وإسلامية، وكيف أن المرأة المحجبـة مُنِعـت مـن دخـول الجامعة ومن التمثيل بالبرلمان.. إلخ.

ورغم اعتراضي الشديد على عدم الحرية في الفكر وفـي الاعتقاد، فكل فرد سواءٌ رجل أو امرأة يجب أن يكون حـرا فيما يعتقد، حرا في دينه وفكره، فهو الذي سيحاسب ولـيس شخصا آخر، ولكنها حضارة العبيد تحكمت وملكـوا زمـام الأمور، ومن الصعب الآن على الأحرار أن يعومـوا ضـد التيار، فإن كان من الممكن أن نحوي هذا التيـار بشـريعتنا السـمحاء، وأن ندخلـه حظيـرة الـدين فلـم لا؟! وبـدلاً من أن نحارب التيار ونحاول تحويـل البشـر مـن عبيـد إلى أحرار، ولن نستطيع، فالبشر غير البشر، والطباع غيـر الطباع، والأرواح تختلف كثيرا عن الأجساد.

ولكي نبث الروح في هذه الأجساد من جديد، ولكي نزيل هذه الحضارة المادية ونستبدلها بحضارة روحية سامية، فإننا بحاجة لمحمد ﷺ، ولن يأتي محمد بعد محمدا ﷺ فسيدنا محمد هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فلنحمد ا عزَ وجل الذي علـم ضعفنا الذي سيكون، فأنزل إلينـا شـريعة تـدوم، وأتـاح

لنا ما هو محرم على غيرنا؛ تخفيفًا علينا ورحمة بنا، ولعلنا نلتزم ونشكر المولى عزَ وجل.

وأريد أن أنوه إلى أن أمر الإمـاء والعبيـد أن يناسـب الجميع، فلا يوجد شيء في الكون كامل متكامل بل الكمال وحده، فكما أن مجتمع الصحابة رضوان ا علـيهم كـانوا أحرارا بينهم عبيد، فنحن الآن عبيد بيننا أحرار، ولا يوجـد ما يمنع أن يتعايش الحر والرَقيق سواء، يحاكم الحر بشريعة الأحرار بينما يحاكم الرَقيق بشريعة الأرقاء، تماما كما كـان يحدث في صدر الإسلام.

الآن وبعد أن ناقشنا الفرق بين المـرأة الحـرة والأمـة، من حيث المظهر والزي الشرعي، ولم نناقش مـا سـيطرأ من تغيير في الجوهر، وفي العلاقة بين المـرأة وزوجهـا، وهذه من الأمور المهمة التي يجب مناقشتها.

كما أننا لم نناقش كيف يمكن للمرأة أن تتحوَل من حـرة لأمة؟ ولكي أناقش معكم هذه الأمور، فإنني قمت بصـياغة قصة قصيرة لمهندس يعيش بإحدى الدول الأوربيـة، وهـو شاب ملتزم بتعاليم دينه، ويصرُ أن ترتدي زوجتـه الـزي الإسلامي؛ مما سبب له بعض المشاكل هناك، فأرسل يستفتي

أهل العلم والفتوى بحثًا عن حـل لمشـكلته ولقـد حاولـت من خلال هذه القصة تجسيد الموضوع بدقـة؛ لكـي يصـل إلى القارئ بسهولة، وإنني لأعلم جيدا كما أوصـى جميـع الإخوة القراء بـأن الأمـور الدينيـة وكـذا الفتـوى هـي من اختصاص علماء الدين وحدهم، فهم المختصـون بهـذا المجال، وحتى علماء الدين فهم يجتهدون، فإن أخطئوا فلهـم أجر، وإن أصابوا فلهم أجران، وسأترك لكم قـراءة القصـة بدون مقدمات أو تعليق: -

القصة

بسم ا الرحمن الرحيم

والحمد رب العالمين

سافرت للعمل بدولة ألمانيا، وبصـفتي مهندسـا بإحـدى الشركات هناك، وعن طريق العمل تعرَّفت على فتاة ألمانيـة أعجبني خلقها ورقة أسلوبها ورزانتها، وتعمل مديرة لإحدى شركات أو مؤسسات والدها رجل الأعمال الألماني الجنسية.

هي غير مسلمة، وأنا شاب متدين مـن أسـرة متدينـة، تعلمت كثيرا من أمور الدين منذ الصغر، ودرسـت بعـض أمور الفقه والتفسير والحديث على أيدي مشايخ ومدرسـين، وهذا من فضل ا عليَّ.

والحقيقة أنني لا أميل إلى التشدُّد في أمور الـدين طالمـا تسمح الشريعة بذلك، وأعلم أن الرسول ﷺ ما خُير في أمرين إلا واختار أيسرهما فنستفيد من ذلك أن التيسير خير طالمـا تسمح به الشـريعة، وإلا فالخيـار بالنسـبة لرسـول ا ﷺ ما ينطق عن الهوى إن هـو إلا وحـي يـوحى، فالحقيقـة عرضت الإسلام على تلك الفتاة وحببتها فيه، وبعـد فتـرة

من الأسئلة والمناقشة ومحاولة إقناعي لها حتى يكون دخولها للإسلام عن رغبة وحب وإقناع، تـمَ دخولهـا فـي الـدين الإسلامي الحنيف وهذا من فضل ا ومنه علـي وعليهـا، ولكن ظهرت مشكلة وهي أنها ترفض لبس الحجاب، وتجده صعبا عليها، ومن ناحيتي صعب عليَ جدا أن أرى زوجتـي تسير بالشارع عارية الرأس مكشوفة الساقين، رغم أن هـذا الأمر هو المعتاد هناك، وإذا تحجبت سـتكون شـبه شـاذة بالمجتمع، فحاولت معها كثيرا حتى أقنعها ولكن بلا جدوى، ففكرت في الابتعاد عنها، وفعلت ذلـك بالفعـل، وشـرعت في إلغاء الزواج بها رغم أن ذلـك فيـه صـعوبة كبيـرة على نفسي؛ لأنني فعلاً أحبها وأجد مشقة في البعـد عنهـا، وأتمنى لو كانت شريكة لحياتي فطيفها لا يفارقني حتى وأنـا أكتب تلك السطور، ولكن لم ولن يطغى هـذا الحـب ولـن يساوي حبي ورسوله، واحترامي وانقيادي لمبادئ دينـي الذي تربيت عليه والذي أفخر أنني أحد أبنائه.

وبينما أنا جالس أفكر في حالي وفيما ينتظرني مـن آلام، إذ خطر ببالي خاطر، أظنه من الرحمن، وأخاف أن يكـون غير ذلك، وهذا الخاطر كالآتي: -

قرأت فيما مضى حديثًا عن رسول ا ﷺ يبين أن عـورة الرجل ما بين سرته وركبته، وعورة المرأة جميع الجسد فيما عدا الوجه والكفين، وعورة الأمة كعورة الرجل.

وقرأت أيضا أن النساء فـي عهـد رسـول ا ﷺ كـن محتجبات، أما ملك اليمين من النساء فكن مكشوفات؛ فنظـام ملك اليمين كان مباحا أيام رسول ا ﷺ وموجودا حتى بعـد وفاته ﷺ.

وا عزَّ وجل عندما حرَّم النساء على رسوله ﷺ وأبـاح إليه فقط ملك اليمين، قال تعالى **﴿لاَ يحِلُ لَكَ النساء مِن بعـد ولاَ أَن تَبدلَ بِهِن مِن أَزواجٍ ولَو أَعجبـك حسـنُهن إِلا مـا ملَكَتْ يمِينُك﴾** والخطاب فـي الآيـة لرسـول ا ﷺ، كمـا أن كثيرا من الصحابة ﷺ كان عندهم نساء ملك يمين، وأبيح ذلك في عهد رسول ا ﷺ وبعد وفاته.

بل قال تعالى وهو أصدق القائلين **﴿فَإِن خِفْتُم أَلا تَعـدِلُوا فَواحِدةً أَو ما ملَكَتْ أَيمانُكُم﴾**.

مما يدل على أن ملك اليمين نظام مباح على مر العصور بل وربما يستفاد منه على المدى البعيد؛ لأنه عندما حُرمـت النساء على رسول ا ﷺ أبيح له فقط ملك اليمـين، وكـذلك

عندما لم يفضل المولى عزَ وجل تعـدُد الزوجـات؛ خوفًـا من عدم العدل وأوصانا ا   عزَ وجل بزوجة واحـدة، أبـاح لنا بابا آخر للتعدُد وهو ملك اليمين.

وإنني لأرى أن هذه الآية ربما نحن المقصـودون بهـا، فقوله تعالى ﴿**فَإِن خِفْتُم أَلا تَعدِلُوا**﴾ أي نتيجة لضعف إيمانكم قد لا تستطيعون العدل، ونحن الآن أخوف ما نخاف من عدم العدل، ففي هذه الحالة عرض المـولى عـزَ وجـل علينـا نظامين:

إما زوجة واحدة، وإما ما ملكت أيمانكم (ملك اليمين).

إذن فا   عزَ وجل خيرنا بين نظام الزواج بواحدة أو إلغاء الزواج والاستعاضة عنه بنظام ملك اليمين، فقـال تعـالى: ﴿**فَواحِدةً أَو ما ملَكَتْ أَيمـانُكُم**﴾ إذن فنظـام ملـك اليمـين قد يكون مستقبلاً عوضا عن نظام الزواج، وهذا ما أعتقـده، وذلك عندما يتفشى الظلم ويقل العدل، كما هو الحـال الآن، ومعلوم أن العدل بين الزوجات هـو أصـعب مـن العـدل في غيره.

فالحقيقة أنه ما كان مني إلا أنني عنـد نزولـي لمصـر لقضاء إجازتي الماضية، ذهبت للمكتبات وأحضـرت كميـة

من الكتب تبحث في نساء ملك اليمين وحكم الإسلام بالنسـبة لهن، وبعد قراءتي لتلك الكتب ازداد اعتزازي وفخري بديني الحنيف وبتعاليمه، وتعلمت مما قرأت أن المرأة في الإسـلام فعلاً على قسمين: -

١- **امرأة حرّة**: - لها حقوق وعليها واجبات، وحـدود شرعية وضحها الشرع، ومن الواجب عليها سـتر جميع الجسد، وأجاز بعض العلماء ظهـور الوجـه والكفين.

٢- **امرأة ملك يمين**: - لها أيضا حقوق وعليها واجبات وحدود شرعية، ولكن تختلف عن واجبات وحـدود المـرأة الحـرَة، ومـن الواجـب عليهـا سـتر ما بين السرة والركبـة فقـط، ومـا عـدا ذلـك فلها الحرية في ستره أو كشفه.

وأيضا المرأة ملك اليمين تنقسم إلى:

أ - ملك يمين غير مكاتبة   ب - ملك يمين مكاتبة.

والمكاتبة هي كاتبها مالكها على أن تكون حـرَة، نظيـر عمل معين أو دفع قيمة معينة من المال.

وعند ذلك فكرت: لم لا ارتبط بهذه الإنسانة التي اختارها قلبي بنظام ملك اليمين بـدلاً مـن نظـام الـزواج، وبـدلاً من أن تقول لي زوجتك نفسي نظير مهر كذا وأقـول لهـا قبلت، تقول لي ملكتك نفسي نظير كذا وأقـول لهـا قبلـت، وبعدها تكون هي حلالاً لي، شريكة لحياتي، ويكون من حقها عدم الالتزام بالحجاب، ويخفـف عنهـا بعـض الواجبـات والحدود الشرعية.

فالحقيقة بعد انتهاء إجازتي الماضية بمصر سافرت لعملي بألمانيا فتقابلنا بحرارة بالغة، وحقيقة شـعرت خـلال فتـرة الإجازة بمدى أهميتها في حياتي، ومدى حبي واشتياقي لها.

وعند زيارتها لي بعد المقابلة أخبرتها بما توصلت إليـه، وشرحت لها بعض الموجود بالكتب، وبينت لها أنـه بهـذا الأسلوب فليس بشرط أن ترتدي الحجـاب بـل تسـتطيعين أن ترتدي الموديلات الحديثة وفساتين السهرة كما يحلو لـكِ وكما يحدث بأوروبا عموما بشرط فقط أن تستري مـا بـين السرة والركبتين؛ فسعدت كثيرا بزوال العقبات بيننا وحـددنا سويا موعدا للزفاف، ولكنها طلبـت منـي أن يكـون حـق الانفصال في يدها هي فأخبرتها أن قرار الانفصـال يمكـن

أن يكون عن طريقي وعن طريقها أيضا، أي أننا سـنرتبط سويا ونعلن هذا الارتباط، ومن حق كل فرد منا أن ينفصـل عن الآخر بعد أن يطلب الانفصال طالما أنه لا يجد السـعادة في هذا الارتباط ويفضل وليس بشـرط أن يبـدي الطـرف الطالب للانفصال أسـباب طلبـه للطـرف الآخـر فربمـا يستطيعون سويا معالجة الموقف وأيضا ليفكروا في المستقبل بعد الانفصال.

وفي موعد الزفاف المحدد وبحضور اثنين مـن الشـهود "أصدقاء لي" وبحضور شقيقها الأكبر مع والدتها تـمَ العقـد داخل شقتي والتي جهزتها لتلائم زوجين جديـدين وصـيغة العقد والتي تمَ الاتفاق عليها مسبقًا كانت كالآتي: -

قالت لي: - ملكتـك نفسـي علـى أن تحفظنـي سـور الإخلاص والمعوذتين.

قلت لها: - قبلت وكاتبتك على أن تقرئي أمامي سـورة الإخلاص ثم تطلبي الانفصال.

وعلى هذا فمن حقي إنهاء تلك العلاقة، كما هـو أيضـا من حقها، وعليها فقط قراءة سورة الإخـلاص كمـا تقـدَم ثمَ تطلب الانفصال.

وبعد مشقة لم أكن أتوقعها حفظت الـثلاث سـور، وتـمَ دخولي بها وبدأت حياتنا السعيدة، والحقيقة تعمدت ألا يكون ما بيننا هو علاقة صفقات تجارية، مـن قسـيمة ومـؤخر وخلافه، فهي مديرة لإحدى مؤسسات والدها، ولهـا دخلهـا الذي يكفيها في حالة الانفصال لا قدَّر ا ذلك، وكذلك راتبي هناك كمهندس يكفيني لأعول أسرة كاملـة وزيـادة، وهـذا من فضل ا ، فما بيننا الآن حب وإخلاص وسعادة ووفـاء، ولا يجبرني أو يجبرها على الحياة سويا إلا ذلك، وتعمـدت أيضا أن يكون سهلاً لها وميسرا أن تنال حريتها وقتما تشاء؛ لأني لا أقبل أن أعاشر امرأة عن غير رغبة منها.

والجميع هناك حتى الآن يتعاملون معنا على أننا زوجين، ولا أحد يعرف حقيقة العلاقة سـوى الشـهود وأصـدقائي المقربين وأفراد أسرتها فقط.

والمشكلة الآن أن أحد أصدقائي المقـربين وكـان أحـد الشهود، تحدَث إلى إمام لمركز إسـلامي بجوارنـا هنـاك بخصوص ما حدث؛ فجاءني هذا الإمام وطالبني بالابتعاد عن تلك الفتاة، وأخبرني أننـي بهـذا الوضـع أعـيش معهـا في الحرام، فقلت له إن ملك اليمين كان موجودا أيام الرسول

ﷺ، ثمَ في عهد الصحابة ﷺ، وأن ا عندما حـرَم النسـاء على رسول ا ﷺ لم يحرم عليه ملك اليمين، بل ترك هـذا الأمر مباحا، وأعتقد أن إباحة هذا الأمر دون غيره له حكمة معينة، فكل شيء عنده بمقدار، علاوة على أن إباحـة ملـك اليمين فيه تيسير كبير على كثير من الزملاء المسلمين هنـا زوجاتهم غير محجبات ويرتدين أحدث الموديلات، بل غيـر ملتزمات بكثير من تعاليم الدين، فربما ناسبهم نظـام ملـك اليمين، ونستطيع أن نقول إن هذا الأمر فيه تيسير على كثير من النساء اللاتي يصعب عليهن ارتداء الحجـاب والالتـزام بكافة تعاليم الدين الإسلامي، ثـم إنـه بالقيـاس"، والقيـاس من الأمور المشروعة للاجتهاد في الأحكام "الشرعية"، نجـد أن الإسلام أباح ملك اليمين (الإماء) أي أنني لـو سـافرت لدولة أفريقية، أو لإحدى الجزر الأمريكية التي يبـاع فيهـا الرقيق، أو ذهبت للسعودية أيام كان يباع فيهـا ويشـترى، واشتريت أمة فهذا أمر مباح شرعا. صحيح أن عليه بعـض القيود، لكنه مباح، رغم أن هذه الفتاة تباع ورغما عنها ليس برضاها، والرجل ربما لا تريده وليس مـن حقهـا أن تنـال حريتها إلا بأمر مالكها.

أيضا أيام الصحابة ﷺ كانت بنت الأمة تصبح أمة، تبـاع وتشترى، وليس من حقها أن تنال حريتها إلا بأمر مالكها.

أما في حالتي هذه، فالمرأة تملك نفسها وبكامـل إرادتهـا للرجل الذي تريده، دون أي ضـغط أو تـدخل مـن أحـد، ومن حقها أن تلغي هذا التملك في أي وقت تشاء، هي فقـط ما فعلت ذلك إلا لتعف نفسها عن الحرام ولتتمتـع بتيسـير في الواجبات والحدود، ويكون من السـهل عليهـا مسـايرة المجتمع والعصر الذي تعيش فيه، تتابع الموديلات العالميـة وعالم الموضة، تختار الرجل الذي أحبه قلبها واختاره وتملك نفسها له، يسقط عنها كثير من حقوق الزوجية، والتي تـدخل كثير من النساء النار بسببها، وكذلك تملك حـق الانفصـال عن الرجل الذي اختارته وقتما تشاء، مثلها في ذلـك مثـل الرجل تماما؛ أي إن المرأة ستكون ملك يمين نظاما، ولكنهـا حقيقة تعيش في حرية كالتي يعيشها الرجل تماما.

وبالقياس على ما تقدَم، فطالما أن الإسلام أباح ملك اليمين أيام الصحابة رضوان ا   عليهم، وبالصورة المتقدمة، فمـن باب أولى أن يكون مباحا في حـالتي هـذه، والتـي لـيس بها أي قهر أو تقييد للحرية، أيضا الإسلام حـارب التوسـع

في ملك اليمين لما فيه من تقييد للحريات، وامتهان للإنسان، وفي هذه الحالة لا يوجد تقييد ولا امتهان، بل ربمـا أبـاح الإسلام ملك اليمين ليناسب تلك العصور التي نعـيش فيهـا، فالإسلام دين صالح لكل زمان ولكل مكـان عنـدما يوجـد من يفهم ويدقق ويبحث جيدا في أحكامه. ثم قلت للشيخ هـل تتذكر حديث رسول ا ﷺ والذي أخبرنا فيه أنه سوف يأتي زمان يزيد تعداد النساء فيه، حتى يكـون للرجـل الواحـد خمسون امرأة، فهل سيفي نظام الزواج الحالي بمتطلبات ذلك الزمان؟

فردَ عليَ إمام المركز بأن هـذا الكـلام جديـد عليـه، ولم يسمعه من قبل، ولأنه في الحقيقـة لـيس مـن علمـاء الأزهر، وإنما أخذ ريادة المسـجد عـن طريـق القـراءة والاجتهاد وحقيقة له نشاط اجتماعي طيـب هنـاك. فاتفقنـا على أنني عند نزولي لمصر أستفتي أحـد العلمـاء الكبـار في ذلك الأمر، عسى أن يجعل ا لي مخرجا.

وأيا كان الأمر فحكم ربي فوق كل شيء وأرضى به حتى لو خسرت الدنيا كلها.

وفقكم ا ورعاكم وجعل الجنة مثواكم

والسلام عليكم ورحمة ا وبركاته.

ملحوظة: -

هذا الأمر السابق أعلم أنه غير مناسب لجميع الأوسـاط الإسلامية وإنما ربما يكون مناسب فقط لحالة كحالتي هـذه. وأيضا ربما يكون مناسبا لفئة من أبناء المسـلمين يجـدون صعوبة في الالتزام بأمور الدين، ويرون أن الحجاب وتطبيق الحدود رجعية وتخلف وأنه من الصعب بل مـن المسـتحيل أن يكون ذلك فأردت أن أخفف عليَّ وعليهم فيشملنا الإسلام بتعاليمه السمحة.